

تفسير الفاسي
المسكت

محاسن التاويل

تأليف علامه عظيم الشان

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه ونصحيه ، ورقمه وخرج آياته واحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُواْ آيَاتِهِْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسي المسمى

مَحَاسِنُ التَّائِيْدِ

تَأْلِيفُ عَلَامَةِ الشَّكَّامِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الخامس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٤٦ - سورة الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ - سورة الرحمن

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

عِيسَى الْبَابِي الْحَلَبِيُّ وَشَرَكَاهُ

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع

فهماً تراح إليه ضماؤها ، وتنعقد عليه

خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

الصبر محمد رشيد رضا

في جلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدنيّ

الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء

مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الحسين من عمره . ونذر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه

الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول

الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦ - سورة الأحقاف

قال المهاجمي : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كاللذليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كاللذائل على أنفسهم . ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة الرجوع خوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...)^(١) الآيتين . وقوله^(٢) : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...)^(٣) الأربع الآيات . (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)^(٤) الآية ، فهي مدنية - كذا قيل . وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ)

« حم * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا » أى : من هول ذلك اليوم « مُّعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ

مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضى بالاستقلال ، أو شىء سماوى بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا » تبكىتم لهم بتمجيذهم عن الإتيان بسند نقلى ، بعد تبكىتمهم بالتمجيذ

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : اثبتوني بكتاب إلهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شىء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما ، كالشىء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالسكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

في سورة الزخرف في قوله^(١) (بَلْ مَقَّعْتُمْ هَؤُلَاءِ وَءَاثِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَاءُ » أى : لتبرئتهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضار . « وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » قال ابن جرير^(٢) : أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا ، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم ، إيانا ، تبرأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصدًا إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهوائهم .

وقال القاسانى : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانى . وكذا استعباد الموالى لخدمتهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله^(٣) (أَلَا خِلَافٌ يَوْمَئِذٍ لِّبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا) فى الموضعين ، للعابدين ، لثلا يلزم التفكيك . وفيه نظر : لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرًا ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية^(١)
(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

«وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ» أى : بادعوه بالجدود أول ما سمعوه ، من غير إجابة فكر ، ولا إعمال روية . واللام
في (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ،
وعدى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه ، وهو الإيمان ، فإنه يمدى بها نحو^(٢) (أَنُؤْمِنُ لَكَ)
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى : لاتقدرون
أن تدفعوا عني سوءاً ، إن أصابني به . و (أم) - على ما قالوا - منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية
وهزة الاستفهام ، المتجاوز به عن الإنكار والتعجب . ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ،
حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز
من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تسكاد تعد
معرفة من السمات المرغوبة .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الفاسر : هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آتقاً في بابها ، فإنه انتقل إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون في حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد بالصدق بما يؤيدني به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : لمن راجع مفك الكفر وتاب وآمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنَّا أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلم تستفكروا بعثتى ، وتستبعدون رسالتى ، كقوله ^(١) (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير ^(٢) : ومن البدع قول عدى بن زيد ^(٣) :
فَلَا أَنَا بِدْعٍ مِّنْ حَوَادِثَ تَعْتَرَىٰ رَجُلًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعَدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المزمرة ومطلعها :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ نَعَمٌ . وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

تعتري : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص ^(١) :

فَخَرَّتْ فَأَنْتَمَتْ فَقُلْتُ : ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أُتَيْتُهُ بِيَدِيَعٍ
« وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أى شئ يصيبنا فيما يستقبل
من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدري
ما يصير إليه أمرى ، وأمركم في الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة .
والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ،
دون ما سيقع في الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحي الناطق
بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل
لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو عليه السلام جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما في
الدنيا ، فلم يدرك ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشرك قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون
فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذي رواه الإمام ^(٢) أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سَكِينَةَ . فأَذَن مؤذِن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ،
أشهد أن محمداً رسول الله) نخرت سَكِينَةُ بما سمعت . فقال الأحوص :
نخرت فَأَنْتَمَتْ

فأنا ابن الذي حمت لحمه الدَّبْرُ ، رُ ، قتيل اللّٰحْيَانِ يوم الرجيعِ
غَسَلْتُ خَالِي الملائكة الأبْرَ رار ميتا طُوبَى له من صريعِ
قال أبو زيد : وقد ، لعمرى نخر بفخر ، لو على غير سَكِينَةَ ، نخر به ! وبأبي سَكِينَةَ عليه السلام ،
حمت أباه الدَّبْرُ ، وغسلت خاله الملائكة .

(الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

النبي ﷺ ، قالت : (طار لنا في السكني ، حين اقترعت الأنصار على سكني المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ . فقلت : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنني لأرجو له الخير . والله ! ما أدرى - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ! قالت : فقلت : والله ! لا أذكر أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك . فممت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عينا تجرى ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخاري ^(١) دون مسلم ، وفي لفظ له : ما أدرى - وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنني ذلك . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة ، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسرافقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايبي : (وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أي : فيما لم يوح إلى . والوحي يبعث الأمور لا يستأنز العلم بالباقي . ولم يكن لي أن أضم إلى الوحي كذباً من عندي . « إِنْ أَتَيْتُمْ » أي : في تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أي : منذر عقاب الله على كفركم به ، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم . القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا أَمَّا نَكَبْرْتُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(١) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج

في كفته ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى : القرآن منزلاً من لدنه ، على . لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُمْ بِهِ» وشهد شاهد من بني إسرائيل «أى : ممن الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة «عَلَى مِثْلِهِ» أى مثل القرآن ، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى ^(١) (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) وقوله ^(٢) (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى . أو على مثل شهادة القرآن ، فجعل شهادته على أنه من عند الله ، شهادة على مثل شهادة القرآن ، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله ، أو (المثل) صلة (و الفاء) فى قوله تعالى «فَأَمِّنْ» للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن ، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق «وَأَسْتَكْبَرْتُمْ» أى : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» استئناف مشعر بأن كفرهم ، لضلالتهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألستم ظالمين) أو (فن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبت عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى ^(٣) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) . قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم .

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشى ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله ^(٤) (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .

(٣) [٤٩ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها . هذا ما حققوه .
ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا ، وأنه استشهد على ما يتناوله
اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ،
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ » أى : الإيمان ، أو ما أتى به الرسول
« خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » أى : لو كان من عند الله لكنا أولى به ، كسائر الخيرات من المال والجاه .
قال ابن كثير : يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم ، وأشباههم وأضرابهم
من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله
وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيناً ، كما قال
تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ أَفْتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)
أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا ^(٢) (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)
وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم :
هو بدعة . لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد
بادروا إليها . انتهى . « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ » أى : بالقرآن « فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ »
أى : كذب قديم ، كما قالوا (أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير : فينتقصون القرآن وأهله ،
وهذا هو الكبر الذى قال ^(٣) رسول الله ﷺ : بطل الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٦١ - باب ماجاء في الكبر =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

«وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَابٌ مُصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بيناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» أى : لا غيره . «ثُمَّ اسْتَقَمُوا» أى : على العمل الصالح . قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة

من كبر . ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبني أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجبال . ولكن الكبر من بَطَرِ الحقِّ وَغَمَصِ الناس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » وقرئ (حُسْنًا) وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور ، في قوله ^(١) تعالى (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...) الآية .
« حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملاً ذا كُرْه ، وهو المشقة . « وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ » أى : حمله جنيناً في بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأننا نقول : إن الحولين أمدٌ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنه قوله ^(٢) تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون في الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم في ذلك ، كما ذكروه في حديث أنس في وفاته عليه السلام على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفى عن ثلاث وستين ، كما بين في شرح الشبائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدلل على رضى الله عنه بهذه الآية مع التى فى لقمان ^(١) (وَفِصْلُهُ وَفِي عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى ^(٢) (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِتَهُمَ الرِّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم .

« حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ » أى : استحکم قوته وعقله « وَبَدَعَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي » أى : ألهمنى « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي » أى : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » أى : واجعل الصلاح ساريًا فى ذريتي ، راسخًا فيهم « إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ » أى : من ذنوبى التى سلفت منى « وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى : المستسلمين لأمرك ونهيك ، المتفادين لحكمك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى الموصوفون بالتوبة والاستقامة « الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا » أى : من الصالحات فنجازيهم عليها « وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم « فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ » أى : معدودين فى زميرتهم ثواباً ومقاماً .
قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل ^(٣) (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) ليدل على المبالغة بعلو منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبينوه ههنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِي) بمعنى (مع) . انتهى .

(١) [٣١ / لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعده الحق في الدنيا ، وهو موفيه لهم في الآخرة ، كما قال ^(١) (وَمَا أَلْتَمَسْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . ثم بين تعالى نعت من عصى ما وصى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاق كافر ، وماله في ماله ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ » أى حين دَعَوَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ « أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ » أى : هذه الدعوة « أَتَعِدَا نَبِيَّ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبري بعد فناءى « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستمظامه ، كأنهما لجأ إلى الله في دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدق بوعده الله ، وأقر أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) في الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعل أو ترك ، للإيحاء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه ، وأخذ ما ينجمه « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى خلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، وراداً عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعده الله « مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التي كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى : الإلهى ، وهو العذاب « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » أى : بديهم الهدى بالضلال ، والباقي بالفانى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى من الفريقين « دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيئ « وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابن لآبي بكر الصديق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال لأبويه - وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعد ، فحسن إسلامه - فنزلت توبته في هذه الآية (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا) .

قال الحافظ ابن حجر : سكن نفى عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول . وذلك ما رواه البخارى^(١) والإسماعيلي والنسائي وأبو يعلى ؛ أن مروان

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٦ - سورة الأحقاف ، ١ - باب والذي

قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملاً على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ، ودعا إلى بيعته وقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : ما هي إلهرقلية ! فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : هرقلية ! إن أبا بكر ، والله ! ما جعلها في أحد من ولده ، ولا في أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُيْ أَفَ لَكُمْ مَا أَتَعِدَا نَبِيَّ) فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروان في صلبه .

ومما يؤيده أن (الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وحاول بعضهم عدم التناقض بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه ، ثم يسلم بعد ذلك . ومعلوم أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أن فيها ما يحيط من أقدارهم ، ويجعلها مغمراً لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنفمة يطرب لها الجهلة ، وقالت يلو كها الرعاع ، وهم الذين يهملهم أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن ! فقد شفى الغلة ، وصدع بالحق ، في حين أن لظهير له ولا نصير - والله أعلم - .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ في نسق : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن . وقال أيضاً : قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش ، ويكنى أبا محمد ، وله عقب بالمدينة ،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زوراً. وما أكثر المزارات في المزارات ، كما يعلمه من دقق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أى يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أى فما بقى لكم من اللذائذ شئ لا ستيفائكم إياها « فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى الهوان « بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » أى عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأَذْكُرُ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَأَذْكُرُ أَخَاعَادٍ » يعنى هوذا « إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » أى لا تشرکوا مع الله شيئاً

في عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ » أى لتصرفنا « عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ » أى فى وعدك أنه آت لاحالة . « قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له « وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ » وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . قال الطبرى^(١) : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ،

كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

فَرَأَوْهُ عَارِضًا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي السَّمَاءِ، مُتَجَهًّا نَحْوَ مَزَارِعِهِمْ « قَالُوا هَذَا عَارِضٌ » أَيْ سَحَابٌ عَارِضٌ « مُمَطَّرٌ نَا » أَيْ بَغِيثٌ نَحِيًّا بِهِ « بَلْ هُوَ » أَيْ قَالَ هُوَ بَلْ هُوَ « مَا أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ » أَيْ مِنْ الْعَذَابِ « رِيحٌ » أَيْ هِيَ رِيحٌ . أَوْ بَدَلُ مِنْ (مَا) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَذَمَّرُ » أَيْ تَهْلِكُ « كُلُّ شَيْءٍ » أَيْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أَيْ إِذْ ذَا الَّذِي لَا يِعَارِضُ ، فَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ آلَتَهُمْ ، بَلْ دَمَرْتَهُمْ « فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ » أَيْ بَيُوتَهُمْ . ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ هَذَا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَادَ ، بَلْ يَنْتَظَرُ لِمَنْ كَانَ عَلَى شَأْنِ كَلْبِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا ، بِقَوْلِهِ « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » أَيْ الْكَافِرِينَ إِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ ، وَطَعَنُوا عَلَى رَبِّهِمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا آبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أَيْ مَكَّنَّا عَادًا ، وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ كَثَرَةِ الْأَمْوَالِ ، وَقُوَّةِ الْأَجْسَامِ ، فِيمَا لَمْ نَمَكِّنْكُمْ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا . عَلَى أَنَّ (إِنْ) نَافِيَةٌ ، أُورِثَ عَلَى (مَا) لَثَلَا تَوْجِبُ شَبَهَ التَّكْرِيرِ الثَّقِيلِ . وَقِيلَ (إِنْ) شَرْطِيَّةٌ مَحْذُوفَةٌ الْجَوَابُ . وَالتَّقْدِيرُ : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الَّذِي ، أَوْ فِي شَيْءٍ ، إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ كَانَ بَيْنَكُمْ أَكْثَرُ . وَقِيلَ : هِيَ صَلَافَةٌ كَافِي قَوْلِهِ (١) .

يَرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخَطُوبُ

(١) البيت من شواهد الكشف ، قاله إياس بن الأرت . وقوله .

فَإِنْ أُمْسِكَ فَإِنَّ الْعَيْشَ حُلُوٌّ إِلَى كَأَنَّهُ عَسَلٌ مَشُوبٌ =

قال الزمخشري : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن^(١) (هُم أَحْسَنُ أَنْثًا وَرِئَاءًا)^(٢) (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا) وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى^(٣) (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقوله^(٤) (مَكَتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ) أى : والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد، على مافيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً » قال الطبري^(٥) : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل في خلافه « إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبري^(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شرَّ شرِّه ، أيخطئ أم يصيب
ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطباعه إلى الأمور المغيبة التي لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمور الشديدة التي تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٦] .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل العقمة .
لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ،
وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ » أى ما حول قريتهكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى
كحجر نمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأندرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ،
فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم
ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبري :
وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة
على كفرهم ، والتماذى على غيرهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصروهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِِلَٰهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ
وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِِلَٰهَةً » أى : فهلا نصر
هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أو ثنائهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً
يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتمنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم
عند ربهم ، كما قالوا^(١) (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم ، وامتنع أن يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضال فى (ضلُّوا) استعمارة تبعية « وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتحادهم بإياها آلهة . « وَمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ » أى وإثر افتراءهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُوا يَلْقَوْنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَلْقَوْنَا أَجَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَ كُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ » أى أملفاهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا » أى ليتم التدبر والتفكير « فَلَمَّا قُضِيَ » أى فرغ من قراءته ، كمل تأثيره به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْا » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُوا يَلْقَوْنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فضل عليها إذ « يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهـدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . نخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى^(١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى^(٢) (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن: يهـدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

«يَقْوَمَتَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» أى رسول الله محمدًا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، «وَأَمِنُوا بِهِ» يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم * «وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجز ربه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أتى اتجه . «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام مسلم^(٣) عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتسناه فى الأودية والشعاب ، فقليل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطلق بنا ، فأرانا آمارهم .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٤٨٢

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرًا . فيكون ما سمعوا حقًا ، وما زادوا باطلاً . وكانت النجوم لا يرى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . ورواه الترمذی^(١) والنسائي في كتابي التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصري : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم . وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعه الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور . وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه^(٢) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ . . .) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم^(١) جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً : من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك - يعنى ابن مسعود رضى الله عنه - أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضى الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقيّ : وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يره . ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل - كما رواه ابن مسعود رضى الله عنه - .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضى الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقيّ . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم فى تفسير (قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجئ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجئ نصيبين . وتأول البيهقيّ قوله (فبتنا بشر ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعد

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ - باب ذكر الجن

وقول الله تعالى : قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعنا) .

وبالجملة ، فقد روى ما يدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد عند ابن جرير^(١) في هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدل على أنه قدرى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحى من الجن كانوا أكثر الجن عدداً ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلمل هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى^(٢) في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشيء قط يقول : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . على الرجل . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتني أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبجه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . ففقت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبى - هذا سياق البخارى - وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ - باب إسلام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه - والله أعلم - .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقي : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفياكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب . قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببداية إسلامك كيف كان . قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لى ربي من الجن . قال ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَحَسَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى مَا خَيْرُ الْجَنِّ كَأَنْجَاسِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : يا سواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبياً ، فانهض إليه تهتدي وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطَلَّابِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى وَلَيْسَ قُدَمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى قَابِهَا

فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَخْبَارِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى لَيْسَ ذَوُ الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجَنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلي ، فشددته على راحلتي ، فما حلت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه مني ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَأْتِي رَيْسِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْمَةٍ	ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ ، قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ :	أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لَوْئِي بَنٍ غَالِبٍ
فَشَمَرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَّطْتُ	بِالدَّعْلِيبِ الْوَجَنَاءِ بَيْنَ السَّبَاسِبِ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ	وَأَنْتَ مُأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
وَأَنْتَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسَيْلَةٍ	إِلَى اللَّهِ ، يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ
فَرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ	وَإِنْ كَانَ فِيهَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكَنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَذُو شَفَاعَةٍ	سَوَاكَ بَعْنٌ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ

قال : فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لي : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسفده البيهقي من وجهين آخرين . انتهى ^(١) كلام ابن كثير . وقد ساقه الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) مع نظائر له ، في الباب السادس عشر ، في هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخباراً آحاد ، عمن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، فخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره في النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون . وقبلوا الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة السكّهانة ، فعنه جوابان :

أحدها : أن دلائل النبوة غيرّها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن السكّهانة عن مغيب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردي : في صرف الجن المذكور في قوله تعالى (١) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) وجهان :

أحدهما - أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث في السماء ، إلا الحادث في الأرض ، وتحيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ يبطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلي ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) في (إليك) بمعنى لام التعليل . وذكر في (الغنى) أنها تأتي مرادفة للام ، نحو (٢) (والأمر إليك) . وفيه تكلف وبُعدٌ ، لنبوة عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردي : وحكي عكرمة أن السورة التي كان يقرؤها (٣) (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

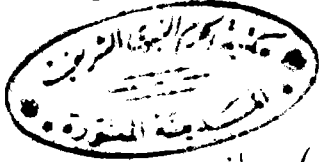
أقول : سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردي :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / الملق / ١] .

والوجه الثاني - أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبي الله بطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : نخط على خطأ وقال : لا يتجاوز .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم . واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يره ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن . أقول : تقدم لابن كثير ما فيه كفاية .



ثم قال الماوردي : وفي قوله ^(١) (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) وجهان : أحدهما - فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا - أي قولهم أنصتوا - أدب منهم . وقد روى البيهقي عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ لَلْجَنُّ كانوا أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمْ أَنْ تُكَذِّبَ) إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد . ورواه الترمذي ^(٢) وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث - دل قوله تعالى ^(٣) (يَتَقَوَّمَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عام الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٥ - سورة الرحمن ، باب حدثنا عبد الرحمن

ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ) .

قال الماوردي : لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس ، واختلفوا في جواز بعثة رسول منهم ، فجوز قوم لقول الله تعالى ^(١) (يَمْعَشِرَ الْإِنجَنَ وَالْإِنسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه . وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس ، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، وتلوا إلى قومهم منذرين . انتهى .
أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية ^(٢) (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) .

الرابع - استدلل بقوله (يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِزُّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .
قال الماوردي : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم . فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم ، يدخلون الجنة . وحكي سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق - كما قال ابن كثير - أن مؤمنهم كؤ من الإنس ، يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل ^(٣) (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا ^(٤) (وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٧٤ و ٥٦] . (٤) [٥٥ / ٤٦ و ٤٧] .

رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القويّ أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليعتق عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كفرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلَأَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأخرى . ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى (١) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار . فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجبروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه (٢) « يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » ولا خلاف أن مؤمنى قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء . وقد حكى فيهم أقوال غريبة . فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بمحوجة الجنة ، وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا . ومن الناس من قال : لا يأتى كلون في الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس - قيل : سر التبعض في قوله (مِّنْ ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربى لو نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه ، جب الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ما وعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة، والسرفيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجأؤه كما في حق المؤمن - أفاده الناصر - .
السادس - قال ابن كثير: جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع - قال الماوردي : الجن من العالم الناطق المميز ، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية . وقال القاشاني : الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكاء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناس التهدي بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .
 القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ

بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى

أَنْ يُخْصِيَ الْمَوْتَى » أي بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كما يأتيهم قبل وفاتهم .

وفي ابن جرير^(١) بحث نحوي في دخول الباء في (بِقَدْرِ) بديع . وبذكر في مباحث

زيادة الباء ، في مطولات العربية .

« بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أي من إعادة المدوم ، ولو فني الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَّغُوا فَهَلْ يهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا » أى الإحياء إحياء « بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَأَصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم - فى اللغة - كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشئ والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لاتبعيضية ، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها - أنهم جميع الرسل . والثانى - أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث - أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزم نوحٌ والخليلُ المجدُّ وموسى وعيسى والنبيُّ محمدٌ
والرابع - أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس - أنهم سبعة بزيادة آدم .
والسادس - أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزداد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو ملك جبار في عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كمنروذ إبراهيم ، وجلوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكلا ابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره - أفاده الشهاب - .

« وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » أى ولا تستعجل بمساء لتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أوفى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً » مِنْ نَهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلِّغْ » قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان :

أحدهما - أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر - أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايى إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلِكَ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدالاتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على انقتال وكثرة فوائده - قاله المهايى - .

وهي مدنية . وحكى النسفى قولاً غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ)

«الَّذِينَ كَفَرُوا» أى: جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى: أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبية بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. «أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ» أى جعلها على غير هدى ورشاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم . وقوله «وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بمطغه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . «كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ، ما كان منهم من الكفر والمعاصي ، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» أى حالهم وشأنهم ، وعملهم في الدنيا بالتأيد والتوفيق . قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم ، كقوله ﷺ^(١) (كل أمر ذى بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبي ، ويتجاوز به عن القلب . ولوفر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ١٩ - باب خطبة النكاح ، حديث

١٨٩٤ (طبعنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسرهُ السفاقيّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير^(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لا يعرف منه فعل ، ولا تكاد العرب تجمعهُ إلا في ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ)

« ذَلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين ما فعله كأن « بَأَنَّ الَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه ، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا . قال الزمخشري : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً للجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد ، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجب الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتميزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة . ولذا قال أبو السعود : الفاء لترتيب مافي حيزها من الأمر على ما قبلها . فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام . أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم في المحاربة ، فضرب الرقاب . وأصله : فاضربوا الرقاب ضرباً . فحذف الفعل ، وقدم المصدر ، وأنبأ منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيده بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّى إِذَا أَتَّخَفْتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبتهم منهم ، فصاروا في أيديكم أسرى « فَشُدُّوا الْوُثَاقَ » بفتح الواو ، وقرئ بكسرهما . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيود والحبل . أى فأمسكهم به كيلاً يقتلوكم فيهربوا منكم « فَأَمَّا مَنَّمَا بَعُدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سببهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال ، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون ، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايى : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله ^(١) (مَا كَانَ لِئَيْبَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَأَسْرَى حَتَّى يُخْجِنَ فِي الْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال . ولم يذكر الاسترقاق ، لأنه في معنى استدامة الأسر ، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية . ولا تزالوا كذلك « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى : إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى . استعير لآلات الحرب التي لا تقوم إلا بها ، استعارة تصريحية أو مكنية ، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخميلاً . وقد جاء ذكرها في قول الأعشى ^(٢) :
وأعددت للحرب أوزارها : رمحاً طويلاً وخيلاً ذكوراً

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التي مطلعها :

غَشِيَتْ لِلْيَمْلِ لِبَلِيلٍ خُدُورًا وَطَالَبَتْهَا وَنَذَرَتْ الْغُدُورًا

يدح بها هوزة بن على الحنفي .

وقيل : أوزارها آتامها . يعنى : حتى يترك أهل الحرب - وهم المشركون - شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكليل) : فى الآية بيان كيفية الجهاد .

الثانى - للسلف قولان فى أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى أنها منسوخة بقوله تعالى ^(١) (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمرو وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

وجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهى المطلقة .

ومدرك الثانى أن الأمر بقتلهم المجل فى آيات ، محمول على الفصل فى مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصالحة فى القتل ، فتلك من باب آخر .

وتم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافى جواز القتل ، لعله من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى اختاره . وإذا دار الأمر فى الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذهاب إلى الإحكام ، لما قدمناه فى مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين فى النسخ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير ^(١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :
والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة
الناسخ والمنسوخ ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ
الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى
القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في
آية أخرى ، وذلك قوله تعالى ^(٢) (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل
ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب ،
فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويعين على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ،
وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلباً ، وهو
على فدائهم والمن عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومن
على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ،
من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه
في هذه الآية المن والفداء في الأسارى ، نخص ذكرها فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه
بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في
هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث - من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ،
وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرأهم من غير
تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم
مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يَحْيَى، بعد الظفر تحييز مصلحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر، فلم يجوز له ترك ما فيه الحظ، كولى اليتيم، لأن كل خصلة من هذه الحصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى. فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، فقتله أصلح. ومنهم الضعيف ذو المال الكثير، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى في المسلمين، يرجى إسلامه، فالنّ عليه أولى. ومن ينتفع بخدمته، ويؤمن شرّه، استرقاقه أصلح - كما في (شرح الإقناع) - .

الرابع - تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة، قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة، لحديث^(١) بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم - رواه مسلم - .

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستجباؤها، بما إذا قصدهم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحریمهم وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدو، ونكايتهم وقربهم وبعدهم - كما في (شرح الإقناع) - .

وقوله تعالى « ذَلِكْ » خبر لمحدوف. أى الأمر ذلك. أو مفعول لمقدّر « وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكَ مِنْهُمْ » أى: لا نتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله. « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَاْ »

(١) أخرجه مسلم في: ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ « أَى لِيُخْتَبَرُ كَمْ بِهِمْ ، فَيَعْلَمُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ فَيُثِيبَهُمْ ، وَيَلُوِّهَ بِكُمْ ، فَيُعَاقِبُ بِأَيْدِيكُمْ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَنْيِبَ إِلَى الْحَقِّ . « وَالَّذِينَ قُتِلُوا » أَى اسْتَشْهَدُوا .
وَقَرِئَ (قَاتِلُوا) « فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ » أَى بَيْنَهَا لَهُمْ فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أَى الظفر والتسكين فى الأرض ، وإرث ديار العدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْاَعْمَالُ)

[٩] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ » أَى خزيًا وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالسكب . « وَأَصْلَ أَعْمَلَهُمْ » أَى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ » أَى من الحق ، وشايعوا ما ألقوه من الباطل . « فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذبة رسلها ، الرادة لنصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمره بمعنى أهلكه . ودمر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثاني أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسياً منسياً ، فيتناول نفسه وكل ما يختص به . والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَلُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكرين في المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا هم لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِّنْ رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَكَأَيْنِ » أى : وكم « مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِّنْ رَبِّهِ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبد على بصيرة منه . « كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ » أى فأراه إياه الشيطان حسناً ، فهو مقيم عليه . « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ ، كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » أى متغير الريح « وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى :
أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ،
وإن كان في صورة الإثبات ، هو في معنى الإنكار والنفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر
بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَنْ كَانَ ...) الخ ، وليس في اللفظ
قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أغارب آخر ، هذا أمثها .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَمِنْهُمْ » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّنْ » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ »
إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ « أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه
من المتلو ، وتهاوناً به « مَاذَا قَالَ آنِفًا » أى الساعة . هل فيه هدى ؟ فإن بينوه لم يستفيدوا
منه شيئاً . « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه
« وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم ، لا ما يدعو إليه البرهان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

« وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً
لحقيقة ما جاءهم « وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بين
لهم ما يتقون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ)

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير : أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى (١) (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْأَافَاقُ) وكقوله جلّت عظمته (٢) (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى (٣) (إِنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا (٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبيّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرى : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ اللحمة ، والخاصر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبي .

روى البخارى (٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا - بالوسطى والى تليها - : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ » أى ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذاجاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [٥٣ / النجم / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ١] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٥) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٩ - باب قول النبي ﷺ (بعثت

أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

« فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » قال ابن جرير^(١) : أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذى هو خالق الخلق ، ومالك كل شيء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطي : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد في العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفة قبل الإقرار .

« وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء . قال الشهاب : وإنما أعيد الجار ، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبي ﷺ ، فإن ذنوبهم معاص كباثر وصغائر ، وذنبه ترك الأولى .

وقال السيوطي : استدل بالآية من أجاز الصغار على الأنبياء . انتهى .
والمسألة مبسوسة بأقوالها ، وما لها وما عليها في (الفصل) لابن حزم . فارجع إليه .
وفي الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٦٠ - باب قول النبي ﷺ (اللهم

اغفر لي ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤ ، عن أبي موسى الأشعري .

في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطايي وعمدي ، وكل ذلك عندي .

وفي الصحيح^(١) أنه كان يقول في آخر الصلاة : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني . أنت إلهي لا إله إلا أنت . وفي الصحيح^(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أي متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أي تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار . « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ » أي مبينة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، « وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ » أي الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي : شك في الدين وضعف في اليقين « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١ - باب التهجد بالليل ، حديث

رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣ - باب استغفار النبي ﷺ في

اليوم واللييلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبي هريرة .

« فَأُولَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي ، بمعنى القرب . وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل (أويل) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بقاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاة) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منه عليهم أصلاً ، كما جاء (أول) أفعل تفضيل ، واسم ظرف ك (قبل) وسمع فيه (أولّة) - كما نقله أبو حيان - فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى . قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها - أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فاهلاك لهم .

والثاني - أنه خبر مبتدأ مضمّر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحقّ بهم .

الثالث - أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى

[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثاني - أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكّي وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث - أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكّي : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع - أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس - أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل - أفاده السمين - .

« فَأَيُّ ذَا عَزَمَ الْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله ^(١) تعالى (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتحلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلو جئتني لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام النبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجب « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأياً ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقم أحكام كتابه ، وما جاء به رسوله « أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ »

أى تمودوا لما كنتم عليه فى جاهلييتكم من التشنت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب الباب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين « الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامتهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ » أى لتعاميمهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا)

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ » قال ابن جرير^(١) : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظمهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون . « أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتفكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونكرها ، كأنها مبهمه منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

«إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ» أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر «مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» أى الحق بوضح الحجة .

«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانى ، أو أمهلهم الله تعالى ، فد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

«ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، «بِأَنَّهُمْ» أى بسبب أنهم «قَالُوا» أى المنافقون «لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى (١)
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَیْنٌ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِیْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قریظة والنضیر الذین كانوا یوالونهم ویوادونهم .

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

[٢٨] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ)

« فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَارَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَلِكَ » أى التوفى المائل « بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ،

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ

أَخْبَارَكُمْ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ » أى لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَعَنَ قَتْلَهُمْ بِسِمَتِهِمْ » أى بعلامتهم التى نسميهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »
أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى أهل المجاهدة
فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب
بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض
لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانى : علمُ الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالاً فى لوح القضاء ،
وتفصيلاً فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس
السموية الجزئية . فعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلي فى المظاهر الملوكوتية
والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يُضْرَبُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يُضْرَبُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر
لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)

[٣٤] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ »
أى لكن يعذبهم ويماقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَغْمَلَكُمْ)

« فَلَا تَهِنُوا » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم ، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسككم بحبله « وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَغْمَلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ)

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد « وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم « وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ » أى لأنه غنى عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لا يسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للمعوم ، وهو معطوف على الجزء . والمعنى : إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع ، أى : لا يأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله (يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ) أى يعطىكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال - هذا ما قاله الشهاب - .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده ، وأن طلب إتيان الأموال منهم ، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم ، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إتيان أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبِخْرَجِ أَضْغَنْكُمْ)

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيَخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويأبح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم ، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشري : الإحشاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شيء . يقال (أحفاه فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شاربه) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجِ أَضْغَنْكُمْ » أى أحقادكم ، وكراحتكم لدينٍ يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هَآأَنتُمْ هَآؤَآءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْ مَن يَبْخُلُ ، وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ، وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ)

« هَآأَنتُمْ هَآؤَآءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِمَّنْ مَن يَبْخُلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ » أى يسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكل شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ » أى بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيل من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فردة الأشهر ، وجزئية الأمم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه . « وَإِن تَتَوَلَّوْا » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلاً منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه . « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ » أى لا يخلوا بما أمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على ما يؤمرون به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨ - سُورَةُ الْفَتْحِ

سميت به لدلالاتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هذه أمور جليلة - أفاده المهايى - .

وأيها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَّةً له بالفتح . قال أنس : لما رجعنا من الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنها ، ففحن بين الحزن والسكابة ، فنزلت . واختاف فى المكان الذى نزلت فيه ، فوقع عند محمد بن سعد (بَصَجْنَان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى - الإكليل - بكراع الغميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال - وهو فى بعض أسفاره - لعمر : لقد أنزلت على الليلة سورة ، هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجع فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » قال الرازى : فى الفتح وجوه :

أحدها - فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها - فتح الروم وغيرها .

وثالثها - المراد من الفتح ، صلاح الحديبية .

ورابعها - فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها - المراد منه الحكم ، كقوله ^(١) (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ،

وقوله ^(٢) (ثُمَّ يَفْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانى ، وجميعها مما تحقق

مصادقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً

لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول

إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحاة والمهادنة ،

وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تسكره من جماعة من

الصحابية ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير

هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصرَ ورجع ، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصالح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلاح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخارى ^(١) عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم - أخرجه في الصحيحين ^(٢) من رواية قتادة به - .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن مجتبع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نزحف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد . ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) - أى بينا ظاهراً - هو صلاح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتسلك المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكَلِمَ بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتَعَسَّكَنَ من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) نزلت في الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله ! أوفتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلق من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيراً ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبله ، قصة البيت وبناءه وتعظيمه والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد . ومن تأمل أمرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الأبواب . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى ، بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب .

« مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع ما فرط منك ، من ترك الأولى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم يفلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولامن الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الفاقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ! لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوك ، ورفع ذكرك . « وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه . قال أبو السعود : أصل الاستقامة ، وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

« وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قوياً منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
 « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ » أى يقيمنا منضما إلى يمينهم .

قال القاشانى : السكينة نور فى القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدان يقينى معه لذة وسرور .
 « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه .
 « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتديره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)
 واللام فى قوله تعالى « لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبر ما دبر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (فَتَحَنَّا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوا) . « وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَآرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » أى بالتمذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَائِرَةُ السَّوْءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكُره والكُره . « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكبير : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهما أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المتقهم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرض لوصف العزة . وقال القاشانى : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما قبل بالمؤمنين . وبذلك (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا - على ظاهره - أودائما ، بجعل طرفى النهار كفاية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها - على ما ذكرنا - لله ، وجوز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدو ، ولا يولّوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهييه . « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ . وقال القاشانى : أى قدرته البارزة فى يد الرسول ، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَنْ نَكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسِيؤُتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح - على ما قاله ابن كثير - وقد اقتصر سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها في شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبي ﷺ في ذى القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت . فأبطل عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيّم : قصة الحديبية كانت سنة ست في ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا في الصحيحين ^(١) عن جابر . وفيهما ^(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما ^(٣) : كانوا ألفاً وأربعمائة - والقلب إلى هذا أميل - وهو قول البراء بن عازب ، ومقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عيّنًا له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عيّنهُ فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، قد جمعوا لك الأحابيش ^(٤) ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نعمل إلى ذراري هؤلاء

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين^(١) محزونين ، وإن نجوا يكن عُقُ^(٢) قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم^(٣) ، في خيل لقريش ، نخذوا ذات اليمين ، فوالله ! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بعترة الجبش . فانطلق يركض نذيرا لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم ، بركت راحلته . فقال الناس : حلّ حلّ^(٤) ، فألحّت^(٥) : فقالوا : خلأت^(٦) القصواء ! خلأت القصواء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخائق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذي نفسي بيده ! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهموها . ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد^(٧) قليل الماء إنما يتبرضه^(٨) الناس نبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته^(٩) ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فوالله ! ما زال يجيش لهم بالرى^(١٠) ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليمعته إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُقُ : الجماعة من الناس .

(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .

(٥) أى لزقت مكانها . (٦) أى حرّنت .

(٧) الثمد : بالتجريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .

(٨) أى يأخذونه قليلاً قليلاً . (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .

(١٠) أى يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عتاراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فر على قريش بيلدح^(١) ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عتاراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصالح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بي ! والذي نفسى بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحر بن قيس ،

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من
 يابعه أبو سنان الأسدي ، وباعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس وأوسطهم
 وآخرهم . فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة
 نصح^(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي
 نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل^(٢) ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجئ لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن
 قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا أمادهم ويخّلوا بيني وبين الناس .
 وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فملوا ، وإلا فقد جئوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذي
 نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره قال بديل :
 سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إني قد جئكم من عند هذا الرجل ، وسمعت
 يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء .
 وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفي :
 إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آتة . فقالوا : آتته . فأتاه ، فجعل
 يكلمه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك :
 أي محمد ! أرايت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن
 تكن أخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك !
 فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر .
 قال : أما والذي نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التي هي مواضع
 النصيح ، تشبهاً لها بالعياب التي يستودع فيها الثياب .

(٢) أي الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كله أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكأما أهوى عروة إلى لحيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غدر ! أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله ! ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخمه إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدًا . والله ! إن تنخم نخمه إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطبة رشداً فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلَبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدن قد قُلّدت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم ، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا الكاتب ، فقال : اكتب :
 بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب :
 باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم .
 فقال النبي ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول
 الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ،
 ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : إني رسول الله وإن كذبتموني !
 اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فخطوف به
 فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب
 فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون
 سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل
 ابن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .
 فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض
 الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : فأجره لي
 قال : ما أنا بمجير لك ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك .
 فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون مالقيت -
 وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت
 إلا يومئذ ، فأثيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! ألسنت نبي الله ؟ قال : بلى ! قلت :
 ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ! فقلت : على م نعطي الدين في ديننا ، ونرجع
 ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه . قلت :
 أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! فأخبرت أنك تأتيه العام ؟
 قلت : لا ! قال : فإنك آتيه ، وتطوف به ! قال فأثيت أبا بكر ، فقات له كما قلت لرسول الله
 ﷺ ، ورد عليه أبو بكر كإرد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغيره حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ! أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لاتكلم أحداً كلمة حتى تنحر بطنك ، وتدعو خالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بطنه ، ودعا خالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فبحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ^(١) (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مَهَيَّجَاتٍ) حتى بلغ (يَعَصِمَ أَلْكُوا فِر) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! قالنا ! فأنزلنا الله عز وجل ^(٢) (هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل ! والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو ، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبي ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبي الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

وبل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلت منهم أبو جندل بن سميل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لالحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه ، وأخذوا أموالهم . وأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لماً أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن ، فأُتِىَ اللهُ عز وجل ^(١) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . .) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف في القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال . فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجاً .

هذا ولينظر تمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في (زاد المعاد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ،

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً)

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا »

قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة ، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم . فاعتلوا بالشغل . أى سيقولون لك

إذا عاتبهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معاشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذى خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك فى الله ، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد يمنعكم تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم ، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانُوا اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قان الناصر : لا تخلو الآية من النقص المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل فى الضر . وكذلك ورد فى الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله ^(١) « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » ^(٢) « وَمَنْ يُرِدْ فِتْنَتَهُ وَفَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » ^(٣) « فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث ^(٤) : « إني لا أملك لكم شيئاً - يخاطب عشيرته - وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفع عنه ، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لاله . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله ^(١) (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذى ذكرته - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

[١٣] (وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . « وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » أى حسن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حجب لكم التخلف . « وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا » وهو عدم نصر الرسول ، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

« وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا » أى : من النار تستعمر عليهم .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ،
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » قال ابن جرير^(١) : هذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومماصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا هَازِرُونَ تَتَّبِعُكُمْ ،
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ
قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهلهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا انْطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَى مَغَائِمٍ » أى أماكنها . قال ابن جرير^(١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذَرُونَا » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « نَتَّبِعُكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عني بقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبي الله صلى الله عليه وسلم في غزوة . وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة ^(١) : (فَاسْتَشْذَبُوا النَّبِيَّ لِلْخُرُوجِ فَقَالَ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) والأكثر من على الأول . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحى . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى ^(١) (فَاسْتَشْذَبُوا النَّبِيَّ لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ - والله أعلم - .

« قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا » أى إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفي في معنى النهي . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهي الإنشائي ، وهو أبلغ .

« كَذَلِكَ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » قال ابن جرير ^(٢) : أى من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدا ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمة غيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أى أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم . قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله . أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أى عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

(١) [٩ / التوبة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فهمًا قليلًا ، وهو ما كان فى أمور الدنيا ، كقوله تعالى ^(١) (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصالح والأمن فيه ، بل « تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » أى يدخلون فى الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذًا (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعداء ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ » قال المہامی : وإن أمكنه القفال بإحساس صوت مشى

العدو ، ومشى فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه السكر والفر ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدو ، فضلاً عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد ، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله ، بقوله سبحانه « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُذْخِرْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَقُولُ » أى عن إطاعتها ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضاً « يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم (أولو بأس شديد) - على أقوال :
أحدها - أنهم هوازن .

الثانى - ثقيف ، وكلاهما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث - بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلة الكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع - أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مضادها لكل الغزوات المذكورة . ولوعده من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عدة بفتح مكة ، منصرفه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبي ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فشكل ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » يعنى بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مفاجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولّوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تُعلم بعدُ . ففي الصحيحين ^(١) من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين ، نخفي علينا مكانها ، وإن كان بينت لكم ، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا في موضعها .

وروى ابن جرير ^(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأثيناها من قابل ، فعميت علينا .

ثم قال ابن جرير ^(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قومًا يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعدّهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت ! ولا ينافي ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهموها ، فأتخذوها مسجدًا ، ومكانًا مقدسًا ، فقطعها عمر حاليثًا ، صونا لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعدد ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال في (الفتح) أيضا في شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بابيننا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله : وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أى كان خفاؤها عليهم ، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى ببيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .
« فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » أى من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أى الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثْبَتَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير^(١) : أى وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فتتحاً قريباً ، وذلك - فيما قيل - فتح خيبر .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهي مغنم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِمَ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما بقى عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِمَ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » أى أيدى أهل خيبر ، فانتصرت عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثانى سيذكر فى قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما فى مقام التذكير بالنعمة ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها - والله أعلم - .

« وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويزيدكم بصيرة و يقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرًا)

«وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَذِهِ) أى فمَجَلَّ لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها . وقال الحسن : هى فارس والروم . قال القرطبي : وكونها معجزة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير^(١) : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدرُوا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدرُوا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتمعذرت عليهم . فأما وهم لم يروموها فتمتعذروا عليهم ، فلا يقال إنهم لم يقدرُوا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبر لحرب ، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، عُلِمَ أن المعنى بقوله (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عاجلها ورامها فتمعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبي : معنى (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم ، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدرُوا عليها فى الحال ، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .
وقد جوز في (أُخْرَى) أن تكون معطوفة على (مَغَانِمَ) المنسوب بـ (وَعَدَكُمْ)
وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) خبر .
وأوجه آخر .

« وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاء .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ،
وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)
« وَلَوْ قَتَلْتُمُ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المنهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يوالىهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .
« سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنىها .
« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير^(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر العقاب والنكال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أنهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمعا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففي ذلك قال (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير^(١) عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعَكُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُو ، وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَيُضِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى « أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو ما يهذى إلى مكة من النعم « مَعَكُمْ » أى محبوساً . قال السمين : عكفت الرجل عن حاجته ، إذا حبسته عنها . وأنكر الفارسي تعدية (عكف) بنفسه ، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُو » قال ابن جرير^(١) : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَنْ تَطَّوَّهُمْ » أى تقاتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين : (أَنْ تَطَّوَّهُمْ) يجوز أن يكون بدلاً من (رِجَالُ وَنِسَاءُ) غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

رجال ونساء غير معلومين) . وتقدير الثانى (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ » أى إثم وغرامة . من (عرّه) إذا عراه مايكرهه . وقوله « بغير علم » حال من الضمير المرفوع فى (تَطْشُوهُمْ) أى تطؤوهم غير عالين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها - أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لىكم فى دخول مكة مقاتليهم .
والثانى - أنه مذكور ، وهو (لَعَذَّبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث - أن قوله (لَعَذَّبْنَا) جوابها معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .
وذكر الزمخشريّ قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُوا) كالتسكير لـ (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لمرجمها معنى واحد ، ويكون (لَعَذَّبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى - أفاده السمين - .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعها ههنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) ههنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدّى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى ردّ الآخر على الأول ، فرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك . وهو مذهب الشافعي . وذهب غيرها إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير ^(١) حيث قال : (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين . قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب - إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يكن قاتله علم إيمانه - الكفارة دون الدية فقال (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَنْ يَشَاءُ) عبارة عن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير ^(١) ، قال : أى ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

« لَوْ تَزَيَّلُوا » أى لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهراسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمى الحصون إذا كانوا بها ، والكفار إذا ترسوا بهم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ » قال ابن جرير^(١) : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك . والعامل في الظرف إما (لعذبا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و (الحمية) الأتفة ، وهي الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوى . أى : فهم المسلمون أن بأبواب ذلك ، ويقاثلوا عليه ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم . « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً . وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها . « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شيء ، فيسوقه إلى مستحقه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ،
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو
وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك ، مقصرًا بعضهم رأسه ، ومحلقًا بعضهم .
ثم روى عن مجاهد أنه قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه
حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبى ﷺ : إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام
محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون فى ذلك
فقالوا : أين رؤياه ؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إني لم أره يدخلها هذا
العام ، وليكون ذلك . و (الرُّؤْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه فى رؤياه . أى حقق
صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب
على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرماني ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ،
يقال : كذبنى الحديث ، وكذا (صدق) كما فى الآية . وهو غريب لتعدى الثقل لواحد ،
والخفف لمفعولين .

وقوله (بِالْحَقِّ) حال من الرؤيا . أى متلبسة بالحق ، ليست من قبيل أضغاث الأحلام .
وقوله (لَتَدْخُلَنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقوله (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العباد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو في معنى : ليدخلته من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُحَلِّقِينَ) حال مقدره ، لأن الدخول في حال الإحرام ، لا في حال الحلق والتقصير . وفي الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصرًا آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يارسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان في عمرة القضاء ، في ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذى القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم ، كثير الفخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهد بها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغيب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه . ثم رجع المدينة ،

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعنا) .

فلما كان في ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرت الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرمح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق ، بعث قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسي والرمح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لثلاث ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد يعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسم الذى لا دينَ إلا دينُهُ	باسم الذى محمد رسولُهُ
خلوا بنى الكفار عن سبيلِهِ	اليوم نضربكم على تأويلِهِ
كما ضربناكم على تنزيلِهِ	ضرباً يُزيل الهام عن مقيلِهِ
ويُذهل الخليلَ عن خليلِهِ	قد أنزل الرحمنُ في تنزيلِهِ
في صحف تُتلى على رسولِهِ	بأن خير القتل في سبيلِهِ

يا رب ! إني مؤمن بِقِيلِهِ

وروى الإمام أحمد ^(١) من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل من الظهران في عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العجف! فقال أصحابه: لو انتحرننا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحسونا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جمامةً . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا ، ولكن اجمعوا من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحشا كل واحد منهم في جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غمزة ، فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشى إنهم كَيِّنَقَزُونَ نَقَرَ الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنة .

قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع .

وروى أحمد ^(٢) من طريق سميد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حُمى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدَهُمْ . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يشوا بين الركنين ، حيث لا يرام المشركون . وفي رواية : ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمروهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .
وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أى من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة ،
ودخولكم إليها ، عامسكم ذلك .

قال ابن جرير ^(١) : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم
يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطئوهم بالخیل والرّجل ، فأصابتهم منهم معرفة
بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . ولیدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .
« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبىّ صلى الله
عليه وسلم « فَتَحًا قَرِيبًا » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
مشركى قريش ، أو فتح خير ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود .
وإلى الأول ، ذهب الزهرى ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم
منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت المدينة ، وضعت الحرب وأمن الناس
كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام ، يعقل
شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل
ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ الْحَقِّ »
أى الإسلام .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهامبي : (بِأَلْهَدَى) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ الْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تستعمل على شيئين : علم وعمل . فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فأخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . « لِيُظْهِرَهُ » أى ليعلمه « عَلَى الدِّينِ كُدِّهِ » قال ابن جرير^(١) : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فينثذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبيانا على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأيداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير^(١) : وهذا إعلام من الله تعالى نبيه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلّمهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَّعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أصحابه « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادقين عن سبيل الله ، وعندهم تَرَأَوْهُمْ فيما بينهم ، كقوله تعالى (١) (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

لطائف

الأولى - جوز في (ثُمَّدَّ رَسُولُ اللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَسُولُ اللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان ، أو بدلاً ، (وَالَّذِينَ مَعَهُ) عطف عليه . وخبرها (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) .

الثانية - قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ، فإنه لما قيل (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زينَ أهلهُ على أنه عند العدو مهيبٌ

الثالثة - قال المهاجى : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ،

إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ،

لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحما بينهم ، لعدم

ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت « تَرَاهُمْ رُكَمَاءَ

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة

الصلاة ، وهى خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله

تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم

ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا^(١) (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ

أَكْبَرُ) انتهى .

« سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » مبتدأ وخبر ، أى علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ

أَثَرِ السُّجُودِ » بيان للسيا ، كآنه قيل : سيماهم التى هى أثر السجود . أو حال من المستكن

فى (وجوههم) .

قال الشهاب : وهى على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هى من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ فى معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس

(سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) يعنى السميت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعنى الخشوع

والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان

بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه

بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة لنوراً فى القلب ،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أمر أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه ، وقللت لسانه . وروى الطبراني مرفوعاً : ما أمر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر - وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزيمى وهو متروك - .

وروى الإمام أحمد^(١) عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحداً يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضاً^(٢) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ترى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوى ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .
وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى الوصف « مَثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ » أى صفتهم العجيبة فيها « وَمَثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ » أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَأَزْرَهُ » أى قواه « فَأَسْتَغْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد . فالسين للمبالغة فى الغلظ ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ » أى استقام على قصبه . و (السوق) جمع ساق « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ » أى يعجب هذا الزرع الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى « لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوامهم وكثرهم ليغيبهم الكفار .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز في قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان : أحدهما - أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِي التَّوْرَةِ) فهما مثلاً ، وإليه ذهب ابن عباس .

والثاني - أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ، ويوقف حينئذ على (فِي الْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ) على هذا فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر مبتدأ مضمّر . أى مثلهم كزراع ، فسر به المثل المذكور في الإنجيل .

الثاني - أنه حال من الضمير في (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث - أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلاً كزراع - ذكره أبو البقاء .

قال الزخشرى : ويجوز أن يكون (ذَلِكَ) إشارة مبهمّة أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ)

كقوله ^(١) (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوَآءٍ وَلَآءٍ) - أفاده السمين .

الثانية - قال السمين : الضمير المستتر في (فَأَزْرَهُو) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس

النسفي ، فجعل المستتر للشطء ، والبارز للزرع . أى أقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفي أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه ، فهي تعينه وتقويه .

الثالثة - قال السمين : (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل .

الرابعة - قال الزخشرى : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيته في الزيادة ،

إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله بن آمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٦] .

وهذا ما قاله البغويّ من أن (الزرع) محمد ، و (الشطاء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلنا التمثيل للنبي ﷺ وأُمَّته .

وأما القاضي فجعله مثلاً للصحابه فقط . وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابه ، قلّوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكّموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس . قال الشهاب : ولكل وجهه .

الخامسة - قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله عليه ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم . قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك - انتهى كلام ابن كثير . ولا يخفّاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط في كتب العقائد ، وأوضحه النووي في شرح (مقدمة مسلم) ، وقبله الإمام الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقه . وكما أريق دماء في سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقرى التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والغلو في المباحث ليس من شأن الحكماء المصنفين . وإذا اشتد البياض صار برّصاً .

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أي صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً» أي عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وسيّئ أعمالهم ، بحسنها . «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩ - سورة الحجرات

قال المهايى: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم ، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وهى مدنية ، وآيها ثمان عشرة .
وقد انفردت هذه السورة بأداب جليلة ، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال ابن جرير^(١) :

أى يا أيها الذين أقرؤا بوحداية الله ، ونبوة نبيه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر فى حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضى الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله .
حكى عن العرب : فلان يقدم بين يدى إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهى دونه . انتهى .

و (تَقْدِمُوا) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبين ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبين .

وفى هذه الجملة تجوزان :

أحدها - فى (بين اليمين) ، فإن حقيقة ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليمين على ما يجاورها ويحاذيها . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعتها ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله - هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا في الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال : بكتاب الله تعالى . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيي ! فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) وابن ماجه^(٤) . والغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدي رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُوا) قرأ قراءة الأمصار ، وهي القراءة التي لأستجيز القراءة بخلافها ، لإجماع الحجة من القراء عليها . وقد حكى عن العرب : قدمت في كذا وتقدمت في كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لاتقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً . انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ١١ - باب اجتهد الرأي في القضاء ،

حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرج ابن ماجه .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ما تقدم ، بمنزلة قولك للمقارن بعض الرذائل : لا تفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتمناه أولاً عن عين ما فارقته ، ثم تعمّ وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه ، لم يرتكب تلك الفعل ، وكل ما يضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها - أشار له الزمخشري - .

« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى تحقيق أن يُتَقَى ويراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال السكا المهراسى : قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شىء . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » أى : إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحد الذى يبلغه صوته ، ليسكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلفظكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسمع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذى يضاد الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب العظيم . وروى عن مجاهد تفسيره بنداؤه باسمه ، أى لانداده كما ينادى بعضكم بعضاً :

يا محمد ! يا محمد ! بل يابى الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض ، كما مر في قوله ^(١) (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) انتهى .
ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروى عن مجاهد في قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إثبات أرق الألفاظ والجل ، وألفها في ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب . وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة ، المحبط للأعمال هو السكفر خاصة ، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة السكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد في الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام . والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ السكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء وجد هذا المعنى أو لا ، حماية للذريعة ، وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا المنهى عنه - وهو رفع الصوت - منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على مائة مقده المعتزلة ، لم يكن لقوله (وَأَنْتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاله ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً - والله أعلم - .

ثم قال : وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاها صحيحة :

إحداها - أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به العقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى - أن إيذاء النبي ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا - يعني المالكية - وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى في مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير^(١) : أى اصطفاه وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يعنى لا تقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يعتجن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِنْ وَرَاءِ » أى خارج « الْحُجُرَاتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالاً لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يفضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبههم وأنفسهم « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده

غير واحد .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

يا رسول الله ! إن حمدي لزين ، وإن ذمّي لشين ، فقال : ذاك الله عز وجل .
وروى ابن إسحاق ، في ذكر سنة تسع ، وهي المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ
لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من
كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء
حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم .
ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال : وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثاني - (الْحُجُرَاتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً :
جمع (حجرة) . وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . فُعْلَةٌ بمعنى مفعولة ،
كالغرفة والقبضة .

قال الزخشرى : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لسكل واحدة منهن
حجرة . ومناداتهم من وراءها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطّلين له ، فناداه
بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من
ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمة . والفعل - وإن كان مسنداً إلى جميعهم - فإنه يجوز
أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقيون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث - قال الزخشرى : ورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على
الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها - بحبيثها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .
ومنها - لفظ (الْحُجُرَاتِ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .
ومنها - المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم .
ومنها - التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها - أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاء عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلياً له ، وإماطة لما تدخله من إيجاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد . ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثاني ، ووطاء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، ففضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جرى على عقب ذلك بما هو أطم ، وهنئة أتم ، من الصياح برسول الله ﷺ ، في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكي عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دقت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خووجه . انتهى .

الرابع - قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حياً ، وفي قبره ﷺ . . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فدارتفعت أصواتهما ، فخصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتم ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس - روى البخاري^(١) عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٢ - باب إن الذين

يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ، حديث ١٩٤٢

النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمَرَ القَعْقَاعُ بنَ مَعْبُدٍ ، وقال عمر : أَمَرَ الأَفْرَعُ ابنَ حَابِسٍ . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافاً ! فقال عمر : ما أردت خلافاً ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...) حتى انقضت الآية .

وفي رواية : فأنزل الله في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ...) الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة (لَا تَقْدَرُوا) ولكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوا) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله ، بأن قولهم : نزلت الآية في كذا ، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول ، فاحفظه ، فإنه من المضمون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاريّ ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، في قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » أى : فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم « فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » أى فتنندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها ، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم في العواقب .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق . وقد روى ذلك من طرق . ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد^(١) في مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق ، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ! أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فن استجاب لي جمعت زكاته ، ویرسل إلى يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإثنان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأت ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقتاً لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الحارث منعني الزكاة ، وأراد قتلي . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث . فأقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة ، لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعت الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيته بته ، ولا أُناني . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟! قال : لا ، والذي بعثك بالحق ! ما رأيته بته ، ولا أُناني ، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال : فنزلت الحجرات (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه ، فرأى الذي يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم في هذه الآية ، أنها نزلت في الوليد بن عقبة - والله أعلم - انتهى .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كرز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق ، فأثاه فقال : منعوني الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربماً ، وقال : أزيدكم ؟ ! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع على ، فخرج إلى الرقة فنزلها ، واعتزل عليّاً ومعاوية . ومات بناحية الرقة .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة في الخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث - في قوله تعالى (فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فائدتان :

إحداها - تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَنْ تُصَبِّحُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فاذا على ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية - مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها - أفاده الرازي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

« وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقومه على الصواب في أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ » قال الطبري^(٢) : أي لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لناكم عنت - يعني الشدة والمشقة - في كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ في أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فناكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما في حيزها سادة مسدّ مفعولى (أَعْلَمُوا) باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير الجرور في (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كأننا على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهي أنكم تودّون أن يتبعكم في كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع في بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزخشرى منع هذا الاحتمال ، قال : لأدائه إلى تنافر المظم ، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرطون فيما يجب له من التعظيم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ) .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى فاجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتوا به ، فيقيمكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أَوْ لَلَيْكَ » أى الموصوفون بحجة الإيمان ، وزينه في قلوبهم ، وكراهتهم المعاصى « هُمْ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانى : كان فضلاً بمنائيتهم في الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات في الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانتة بإفازة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكرهية المعصية . وهو تعليل لـ (حَبَّبَ) و (كَرَّهَ) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا » أى تقاتلوا « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا »
قال ابن جرير (١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي » أى تعدى وتأنى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِنْ فَاءَتْ » أى رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أى بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلاً بين خلقه « وَأَقْسِطُوا » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : الاقتتال لا يكون إلا الميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من (٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداها ، حتى ترجع . لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض منازعتا فيه بالزعم والأيدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح . روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال - فيما رواه الطبري^(١) عنه - : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَاتِلُوا آلَئِي تَبَغَى ...) الآية . يقول : ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل - والله أعلم - .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّى تَفِيءَ) . انتهى . وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلى يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا ينفك لهم مال ، ولا نسبي لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا بدينهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمفوا ما أتلّفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظرو الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلل دماء المسامين وأموالهم ، ولم يجتمعوا للحرب ، لم يتعرض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حداً ، أقامه عليهم .

وإن اقتتل طائفتان لعصية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلّف على الأخرى . هذه شذرة مما جاء في (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث - قال في (شرح الإقناع) : في الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلّفوه في قتالهم . وإجازة كل من منع حقاً عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في المنشط والمكروه ، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه) ^(١) . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة ، وعلياً قاتل أهل الجمل ، وأهل صفين . انتهى .

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونة من بنى عليه ، لقوله (فَفَقَتِلُوا) ، وعلى وجوب تقديم النصيح ، لقوله (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى في المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع - وجه الجمع في (أَقْتَتَلُوا) ، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلنا) هو الجمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . والنكته في اعتبار المعنى أولاً ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - ياب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تفكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٤١ و ٤٢ (طبعنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال ، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال مختلطون مجتمعون ، فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً .
وسرُّ قرْنِ الإصلاح الثاني بالعدل ، دون الأول ، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس - (أقسط) الرباعى همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثى ، فعناه جار . قال ^(١) تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور - خلافاً للزجاج - في جعلهما سواء - أفاده الكرخي - . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب : وتسمية المشاركة في الإيمان أُخُوَّةً تشبيهه بليغ ، أو استعارة . شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدى في الجنان .

« فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوها على حكم الله ، وحكم رسوله . قال القاشانى : بين تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقربة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

التناسب في اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة ، وأحد خصائصها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكبدوا بفواشئ النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرافة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادةهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمّر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزم المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر أزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع ، أكثر منه في شقاق الاثنين - أفاده القاضي والزخشرى - .

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث^(١) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث^(٢) (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . وحديث^(٣) (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر) . وحديث^(٤) (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم - وكلها في الصحاح - .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٣ - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبي موسى .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْزَمُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين ، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد ، فلعله أجمع منه ، لما نيظ به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنى للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبري^(١): والصواب أن يقال إن الله عم ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميع معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد عدّ الغزاليّ في (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تكميلاً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة - السخرية والاستهزاء : وهذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ...) الآية . ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت ، فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ، ولي كذا وكذا .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ^(١) (يَوَلِّتَنَّا مَا لِهَٰذَا السَّكِّتِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة التفهيم بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أي لا تستحقره استصغاراً ، فاعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير والتمهون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تحبّط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

وعلى صنمته أو على صورته وخلقتة ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها . انتهى .
لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوام على النساء (والأحسن المهمات) وهو في الأصل إما جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع في الجمع . وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب ، أو لأنهن توابع . واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أي لا يعيب بعضكم على بعض ولا يظن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوا) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنْفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما في قوله ^(١) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وقوله ^(٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففي اللفظ الكريم تجوز ، وتقدير مضاف . والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه ، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية ، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مباغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلهزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لزم

نفسه .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : ف (أَنْفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوز في قوله (تَلْمِزُوا) . فهو مجاز ذكر فيه المسبب ، وأريد السبب . والمراد : لا ترتكبوا أمراً تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُوا) ، كما في (الكشف) ، وكونه من التجوز في الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تسكف ظاهر . وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم ، بالظن على غيركم ، كما في الحديث ^(١) (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسر بأنه إذا شتم والدي غيره ، شتم الغير والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » أى ولا تدعوا بالألقاب التي يكره النبز بها الملقب فقد روى أنه عني بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يفضبون من الدعاء بها رواه أحمد ^(٢) وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية - كما قال ابن جرير ^(٣) - : تشمل ذلك كله . قال : لأن التناز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« يَنْسِ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال الزحشرى : (الْأَسْمُ) ههنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل ينس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفي قوله (بَعْدَ الْإِيمَانِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أحدها - استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول :
بئس الشأن بعد الكبرة ، انصبوة .

والثانى - أنه كان فى شتأهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى ! يا فاسق ! فهو عنه ،
وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا
التفسير متعلقة بالنهى عن التنازع .

والثالث - أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة :
بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير ^(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه
غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن
التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته :
يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ،
ولمزا أخاه المؤمن ، ونزله بالألقاب ، فهو فاسق (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) يقول :
فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقاً ، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ما وصفنا
من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى
وقال ^(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه
فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بنه ، أو بقبيح ركوبه
ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاها قبل توبته ، إذ كانت الآية لم
تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ،
أو بالقبيح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ » أى من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أولمزه إياه ، أو سخريته منه « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً ، فإن الظان غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه ، إذ لاداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه ، أو صرف الذهن فيه ، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى ^(١) (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من أتى جلبةاب الحياء ، فلا غيبة له . ولذا قال الزمخشري : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الریب ، والمجاهرة بالخبائث .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزالي في (الإحياء) في بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك ، وتسمي الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه ، بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركز إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها ^{الإنسان} إلاعلام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعيانك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . إل أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بيئة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهى عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُوا » قال ابن جرير ^(١) : أي لا يتبع بعضهم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يتغنى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب ، لأن من يطلب الشيء يمسّه ويحسّه ، فأريد به ما يلزمه . واستعمل الفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالي : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله . فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث ^(١) أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود ^(٣) : أن ابن مسعود رضى الله عنه أتى رجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به - والرجل سماء ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود ^(٤) عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد ^(٥) عن دجين ، كاتب عقبة ، قال : قلت لعقبة : إنا لنا جيرانا يشربون

(١) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٨٥ - باب ما جاء في تعظيم المؤمن ،

عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب الفساح : ٤٥ - باب لا يخطب على خطبة أخيه

حتى ينسكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

الخر ، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم ! قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فكأنما استحي مؤودة من قبرها !

وروى أبو داود ^(١) عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريسة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعي : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .
« وَلَا يَمْتَنِبْ بَعْضُكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضهم في بعض بظهر الغيب ، ما يكره القول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واعتابه ، كغاله واعتاله ، إذا ذكره بسوء في غيبته .
« أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغى أن تكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثل اغتيا ب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .
لطائف :

الأولى - قال الزمخشري : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أظفح وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها - الاستفهام الذي معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقة أو ادعاء) ومنها - جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالحجة . ومنها - إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك .
ومنها - أن لم يقتصر على تمثيل الاغتيا ب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخاً .
ومنها - أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث

حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى (أُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحماً الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحماً من يفتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كاللحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغته في استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها التأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبيهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها ، وجدت لها مناسبة لما قصدت له . انتهى .

الثانية - الفاء في قوله تعالى (فَكَّرِهْتُمُوهُ) فصريحة في جواب شرط مقدّر . والمعنى :

إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي ، كما في قوله تعالى ^(١) (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَّرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاعتياب المفهوم منه . والمعنى : فأكروهه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضي للمبالغة ، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائياً غير محتاج لتقدير (قد) - أفاده الشهاب - .

الثالثة - قال ابن الفرس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمي ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل في تحريم الغيبة، ولم يضرب بميعة سائر الحيوان. فدل على أنه في التحريم فوقها. ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزالي، فإنه جمع فأوعى.

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاعتياب وغير ذلك من المناهي. « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم.

ثم نبه تعالى، بعد نهيهم عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم في البشرية، كما قال ابن كثير، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ » أى من آدم وحواء. أو من ماء

ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء. أى : من أب وأم، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر، سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب.

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » قال ابن جرير^(١) : وجعلناكم متناسبين،

فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً. ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقر بكم إلى الله، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لأعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة.

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم، وبالاتق والأكرم، وغير ذلك،

لا تخفى عليه خافية.

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

تنبيهات :

الأول - حكى الثعالبي في (فقه اللغة) في تدرج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبي عن أبيه : أن الشعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّي : الصحيح في هذا ما رتبته الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العِمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشعب فهو أكبر حتى عدداً في الحواء ثم القبيلة
ثم يقلوها العِمارة ثم الـ بَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لـكن هي في جنب ما ذكرنا قليلة

نخزيمة شعب ، وكفانة قبيلة ، وقريش عِمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكري في (شرح نوادر أبي علي القالي) : كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيدي في (تاج العروس) .

الثاني - في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتمعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقى غير النسب ، يقدم على النسب غير التقى ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسب غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط في الكفاءة الحرية - نقله في (الإكليل) - .
وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لَتَمَارُقُوا) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : المحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت في معرض البيان . وقال القاشاني : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى . والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله ، وأجل قدراً . فالمتقى عن المفاهى الشرعية ، التى هى الذنوب ، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع - روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارى ^(١) عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : نخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى (وَأَتَّخِذُ اللَّهُ بُرْهِيْمَ خَلِيْلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم^(١) عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن أبي ذر قال : إن النبي ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمَر ولا أسود ، إلا أن تفضل به بقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ : كلَّكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليمكُونن أهون على الله تعالى من الجملان .
وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر : أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَمِيَّةَ الجاهلية وتَعْظُمها بِأَبائِها . فالناس رجالان : رجل بَرٌّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يُتَقَّى ، هين على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . . .) الآية .
وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري^(٣) عن عطاء قال : قال ابن عباس : ثلاث آيات ججدهن الناس : الإِذْن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب ، والإِنْكار على مساوئ أخلاقهم ، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات ، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان ، ثم بيان من المؤمن حقاً ، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءِامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعمًا أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه ، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أى انقدنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل « وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة ، والبعد من ركوب المناهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد . فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) بعد قوله (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَمْ تُؤْمِنُوا) تكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوا) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . وهذا ما أشار له الزمخشري ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق ، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف. لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغويّ في بعض المواضع . وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جلية ، كما هنا . وإلا فآية^(١) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) أكبر منادٍ على اتحادهما . ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعوا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعوا . والإيمان والإسلام وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل ، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في (الفصل) فانظره .

الثاني - قال في (الإكمال) : في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر . وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم ، الإمام ابن حزم في (الفصل) ، فراجعه .

الثالث - قيل ، مقتضى الظاهر أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا . أو : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم . فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من الفهم عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً . وقيل : إنه من الاحتباك ، وأصله : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم ، فقولوا أسلمنا ، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر . والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفي عنهم ، ثم استدرك عليه فقال : دعوا ادعاء الإيمان ، وادعوا الإسلام ، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه . فنفي الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الانصاف به ، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة - هذا ما في القاضي وحواشيه - .

« وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَنْتَهُوا عَمَّا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ . وَالْخَطَابُ لَهُؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْقَائِلِينَ آمَنَّا » لَا يَلْتَمِسُكُمْ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا « أى لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا يفتقصكم من ثوابها .

قال الزمخشري : يقال (ألتة السلطان حقه أشد الألت) وهي لغة غطفان . ولغة أسد ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

وأهل الحجاز - لانه ليتاً - وحكى الأصمى عن أم هشام السلوية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلْتَكُمُ) و (لَا يَأْتِكُمْ) . ونحوه فى المعنى ^(١) (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإتفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى - قاله ابن جرير ^(٢) : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى: بذلوا الجهد. أو مفعوله مقدر، أى العدو أو النفس والهوى.

«أَوْ لَيْسَ بِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» أى الذين صدقوا فى ادعاء الإيمان، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض يكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر. أى: هم الصادقون، لا هؤلاء، أو إيمانهم إيمان صدق وجد.

تنبيهات:

الأول - قال فى (الإكليل): فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفصل).

الثانى - قال القاشانى: فى قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ..) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقى، وهو اليقين الثابت فى القلب المسقّر الذى لا رتياب معه، لا الذى يكون على سبيل الخطرات، فالؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورتها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهياتها، وذلك معنى قوله (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بعد نفي الارتياب عنهم، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر. انتهى.

الثالث - قال فى (الكشاف): فإن قلت: ما معنى (ثم) ههنا، وهى للترخى. وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين:

أحدهما - أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان، أو بعض المضلين، بعد تلج الصدر، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يمينه. أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك، راكباً رأسه، لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله (ثُمَّ اسْتَغْمُوا).

والثاني - أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفر دبالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخي ، إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفي الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخي زمانى لا رتبى على ما مرّ في قوله : (ثُمَّ اسْتَقَمُوا) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته في الإيمان ، حتى كأنه شيء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى هؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءامناً) . « أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ » أى أخبرونه بقولكم (ءامناً) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثاني بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمن معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءامناً) إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه ، وهو العالم بكل شيء ، كما قال « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير^(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه في دينهم . يقول : الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائرهم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مخفوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم ، بَلِ اللَّهُ

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » أى اتقادوا وكثروا سواد أتباعك . « قُلْ لَا تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلَمَكُم » أى بإسلامكم ، إذ لا غمرة منه إلى^(١) (مَنْ أَهْتَدَى فَأَنْمَاهْتَدَى وَلَنْ يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ)

« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى قولكم

(ءَامِنًا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير^(٢)

يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن

الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ،

فلا تعلمونا دينكم وضائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شىء فى خبايا السموات والأرض .

تنبيهات :

الأول - روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله

ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ :

إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم - ونزلت هذه الآية - .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون الحديث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنّيين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم في غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبا لقبيلة واحدة - والله أعلم - .

الثاني - في قوله تعالى (بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنّة لله ، والفضل في الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبي ﷺ للأَنْصَار يوم حنين^(١) : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضالّلاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فأنفكم الله بي . وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ - كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمّن .

وما أطف قول أبي إسحاق الصابى في طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى : وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويمدّون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم في الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجعهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبدعهم في الفضل غاية ، وأبهّهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، الذى اتخذهم صفيّاً وحبيباً ، وأرسله إلى عباده بشيراً ونذيراً ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم في المعاصى حمية ، ونفوسهم في غير ذات الله أبيعة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً . فلم يزل ﷺ يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لما كان وحيداً ، وبالغنى لما وجد أنصاراً وجنوداً . لا يرى لكفر أثراً إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجمرانه ، وصدع ببيانته ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبيلها بعد البقات ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٦ - باب غزوة الطائف ، حديث

رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتواعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زكية نامية ، راحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث - قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرها من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم ، السالك لطريقتهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

- أحدها - يتعلق بجانب الله .
- وثانيها - بجانب الرسول .
- وثالثها - بجانب الفاسق .
- ورابعها - بالمؤمن الحاضر .
- وخامسها - بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) ، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله . وقال ثانياً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ثالثاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكُمْ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) .

وقال رابعاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَزُواْ)

لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُواْ) وقال (وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز

عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى . وهو في غاية الحسن

من الترتيب .

فإن قيل : لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله

ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ،

ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ،

والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب

فلا يؤذى المؤمن إلى حيٍّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبي الفاسق ،

آية الاقتتال فقال (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ) ؟ انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠ - سُورَةُ ق

وتسمى سورة (الباسقات) . وهي مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .
قال ابن كثير: وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات .
وأما ما يقوله العوام أنه من (عم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم .
والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟
فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل
وحده . فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (ق) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقان وألم السجدة

وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحَم السجدة وحَم عسق والزخرف

والدخان والجاثية الأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعين أن أوله سورة (ق) .

وروى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بـ (ق) و (اقتربت) .

وروى مسلم^(٣) وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (ق) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفي رواية : كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٨ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥١٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث ٥٢٤١ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

« ق » هو حرف من حروف التهجى المفتوح بها أوائل السور ، مثل : ص ، ون ، وآلم ، وحَم ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ، أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشر بهم الخور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله ^(١) (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عمر .

ثم رد ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (ق) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر^(١) :

* قلت لها قفي فقالت قاف *

أى : إني واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .

« وَالْقُرْآنُ الْغَيْبُ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » أى : لأن جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود - إضراب عما ينبى عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضراب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب اقتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجدله ، ولكن لجهاهم .

« فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولاً ، للإشعار بتعجبهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بوجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

« أَءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيده للإنكار . والعامل في (إذا) مضمر غنى عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمندر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ)

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو رد لاستبعادهم ، وإزاحته . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى . وتأكل من لحومهم وعظامهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن في الأرض منهم . « وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » قال أبو السعود : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد : إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب محيط ، يتأق منه كل شيء . أو تأكيده لعلمه تعالى بها ، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَاءَهُمْ » أى من غير تأمل وتفكير .

قال الزمخشري : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفضع من تمجيبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات ، في أول وهلة من غير تفكير ولا تدبر . وكونه أفضع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه . « فهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقاتلهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تمنناً وكبراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)
« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا » أى هؤلاء المكذبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّاهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » . قال ابن جرير^(١) : يعنى وما لها من صدوع وفتوق . كقوله تعالى^(٢) (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)
« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبلاً ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان في جوفها ، « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يتهيج به لحسنه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٧ / الملك / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۸] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر في بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۹] (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

[۱۰] (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)

[۱۱] (رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا ، كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً مُّبَارَكًا » أى كثير المنافع ، « فَأَنْبَتْنَا بِهِ » جَنَّاتٍ « أى أشجاراً ذوات أثمار ، « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء ، النخل طوالاً ، أو حوامل . من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعول) فهو من النوادر كالطوايح واللوايح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّاتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل . « لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضها فوق بعض . « رِزْقًا لِلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنْبَتْنَا) . وفى تعليقه بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير ، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكّر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رَزَقًا) مصدر من معنى (أَنْبَتْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَحْيَيْنَا بِهِ » أى بذلك الماء « بِلَدَةٍ مَيِّتًا » أى أرضاً جديبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، ف (كَذَلِكَ) خبر (الْخُرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَابُ الرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده ، يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . « وَثَمُودُ » وهم الذين جادلوا صالحاً ، وقتلوا الناقة . « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هوداً فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازى : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَانُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إيمان الرجال . « وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » أى أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ) قال المهيمن : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ » أى كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسلهم ،

ومن كذب رسولاً ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى^(١) (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم - أفاده ابن كثير - وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلٌّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به من كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير^(٢) : إنما وصف تعالى في هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ أنه مُجِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسليمة للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العى هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائى : تقول (أعيت) من التعب و (عيت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية^(٣) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِنَّ) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثاني ، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة مامات وتفرق أجزاءه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلهية ، وسهولة ذلك في المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عَرَّفَ الخلق الأول ، ونَسَكَرَ اللبس ، والخلق

الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله ^(١) (وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جملة دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى . أى إذا لم يعى تعالى بالخلق الأول ، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أنخم من أن يخاطبه معرفة . ومرة يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول ^(٢) (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) وقوله ^(٣) (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و ^(٤) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أى لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ » أى تحدث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوي ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذاك القرب أتم من غاية القرب الصوري ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتزاهه عن القرب المسكنى ، إما تمثيلاً ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشئ سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية ، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته ، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقي الحبل على حقيقته ، فإضافته كالجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرّ لثلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحضر^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) يعنى : ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] .

تبارك وتعالى : ^(١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عز وجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من جبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ما ذكره ، بما ورد في الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتفاهى سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الرباني ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إثبات (نحن) على (أنا) لا يحسم ما نقاه ، لاحتمال إرادة التعظيم ؛ (نحن) كما هو شائع ، فلا يتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ما ذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيماً للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ما عرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عني رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَنْ قال في تفسير الآية كالفقاهي - ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشئ يشهد بالبينونة والائتمانية الراجعة للاتحاد الحقيقي . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة في هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التي هي الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدماً صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشاني . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحقاقهما ، في كتاب (دلائل التوحيد) الذي طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنعه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدد ، مسبقاً بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله في كتابه (شرح حديث النزول) : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

من كل شيء أصلاً ، بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى ^(١) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما في الصحيحين ^(٢) عن أبي موسى الأشعري : أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، وإنما تدعون سميعاً قريباً . إن الذين تدعونهم أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتهم) . فقال : إن الذي تدعونهم أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام ^(٣) (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سألته ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوماً يتعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه باللائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أذن إلى من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت

في التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ - ٤٧

(طبعنا) . (٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب ، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية^(١) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال^(٢) (إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) وقال^(٣) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أقرب ربنا ففناجيه ، أم بعيد ففناديه ؟ فسكت النبي ﷺ ، فأنزله الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال في هذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قرب به إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول ، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال : وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من
(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما في لفظ المعية . ولا حاجة إلى هذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) أى بملائكتنا ، في الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشئ أعلم من غيره ، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره ، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه . ثم إنه سبحانه عالم بما يُسرُّ من القول ، وما يجر به ، وعالم بأعماله ، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى ^(١) (يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ، سياق الآية ، فإنه قال ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فأثبت العلم ، وأثبت القرب ، وجعلهما شيئين ، فلا يحمل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا في غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه في كل مكان ، وإنه قريب من كل شئ بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شئ ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم في جميع بدن الإنسان ، وهو في أهل الميت ، كما

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

هو في الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة ، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين . فقيد القرب بهذا الزمان ، وهو زمان تلقى المتلقين ، وها الملاك الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال ^(١) (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعידين الرقيب والعتيد معنى مناسب . وكذلك قوله في الآية الأخرى ^(٢) (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى في هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) فأخبر عن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هي في مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شيء من شيء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما في قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو قرب به إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى ^(٣) (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ * فَتُزْلِقُ مِنْهُمْ جَحِيمٌ * وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ) . ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقرب منه ، دون من حوله ، وقد يكون حوله قوله مؤمنون . وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى ^(٤) (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) وقال

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣-٨٥] .

(١) [٥٠ / ق / ١٨] .

(٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨-٩٤] .

تعالى^(١) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ اتَّوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وقال^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى^(٣) (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ) وقال تعالى^(٤) (قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) وهذا كقوله^(٥) سبحانه (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال^(٦) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ) وقال^(٧) (إِنَّا عَلَّمَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّا عَلَّمْنَاهُ يَبْنَؤَهُ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة . فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعَلَّمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين^(٨) عن النبي ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] . (٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .

(٥) [٢٨ / القصص / ٣] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧-١٩] . (٨) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ،

٣١ - باب من هم بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهيم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذي اختص الله به .

ثم قال : وقوله ^(١) (وَنَعْلَمُ مَا تُوسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ أَلْوَرِيدِ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال ^(٢) (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا ^(٣) : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنَا رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى ^(٤) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ) لما كانت ملائكته مقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال ^(٥) تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذلك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

(١) [٥٠ / ق / ١٦] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .

(٣) [٥٠ / ق / ١٨] . (٤) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من ورید حلقة حين يتلقى الملاك الحفيظان ما يتلفظ به . ف (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنى عن استحفاظ الملاكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكنه الحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى ما يرغبه ويرهبه فى الأولى .

وقال القاشانى : بين تعالى بهذه الآية أقربيته ليتلقى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقىهما للحجة عليه ، وإثبات الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقوال الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الحسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقترضة بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشروع إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهياته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة مفع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزية عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصل ، وسنخه

الحقيق ، وحاله الغريزي ، لينمحي أثر ذلك الأمر العارضى ، بالنور الأصلي والاستغفار ، أى التنوير بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية ، لينمحي أثر تلك الظلمة العرضية ، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يعين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر في كلام القاشانى رحمه الله تأويل الملك بالقوة الحائنة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هذا الشيء الذى أودع فيها ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقةً ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكًا ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالى إلى هذا المعنى ، وعبر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكًا ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكًا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانًا . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته . لطيفة : (قَعِيدٌ) كجليس ، بمعنى محالس ، لفظًا ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله (١) :

* فإنى وقيارٌ بها لغريبٌ *

(١) قائله ضابىء بن الحارث البرجى . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ *
(وقيار) اسم جمده .

وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوروبا) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله ^(١) (وَالْمَلَأْنِيكَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) ، وضعف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعيل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الجمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » أى شدته المحيرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِالْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعديدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلا منهما مذهب للعقل ، فلاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإنبات السكرة لها ، تخييل . « ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفر . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيته هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الحرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبي : إن اتصل قوله (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ . .) الخ بقوله (فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ...) الخ ، فالمشار إليه الموت . والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله ^(١) (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) ^(٢) (وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ الْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد ، بشهود ما قدم من الأعمال وما آخر « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير ^(٣) : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال : وقال القاشانى : أى سائق من عمله ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشئ إنما نشأ من شعوره بذلك الشئ ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفليةً جسمانيةً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقواه ؛ أو أمراً علويةً روحانيةً بعثه عليه عقله ، ومحبتة الروحانية ، وحرصه عليه قلبه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيه ،

(١) [٥٠ / ق / ٢٤] . (٢) [٥٠ / ق / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والعمل المكتوب في صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عاينه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيأت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ

حَدِيدٌ)

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »

في المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها - أنه النبي ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة في خلال أمر النبا الأخرى ، تنويهاً بمحنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلو الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قوى ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية (١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) .

وثانيها - أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت في غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأحوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جلينا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيت وعابنته ، فزال الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية (٢) (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا) وآية (٣) (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها - أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف

الغطاء عن البر والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(٢) [١٩ / مريم / ٣٨] .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعول ابن جرير^(١) في الأولوية على الثالث .

قال الزخشرى : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً . فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشانى في تأويل الآية : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنْكَ) بالموت (غِطَاءَكَ) المادى الجسمانى ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوى تعينه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُ » أى قرين هذا الإنسان الذى جىء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قبض له مقارناته يغويه ، وهو الأظهر - كما اعتمده الزخشرى - لآية^(٢) « نُقِصَ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » ويشهد له قوله تعالى^(٣) (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) « هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ » أى هذا شئ لدى حاضر معدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى حنفه ، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدى عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاشانى : (وَقَالَ قَرِينُهُ) أى من شيطان الوهم الذى غره بالطواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) مهياً لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / ق / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده في طلب اللذات البدنية ، حتى هياه لجهم في قعر الطبيعة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق ، ألق ، ثم حذف الفعل الثاني ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، ففنى الضمير للدلالة على ما ذكر . أو الألف بدل من نون التأكيذ ، لأنها تبدل ألفاً في الوقف ، فأجرى الوصل مجراه - أوجه ذكروها - .

وقال ابن جرير^(١) : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين .

وفي ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما - أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثاني - أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلها ، وازجرها ، كما قال^(٢) :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْسِبَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَاجْتَرَّ شَيْحَا

وقال أبو ثرؤان^(٣) :

فإن ترجرائي يا ابنَ عفانَ أنزَجِرْ وإن تدعاني أحمرَ عِرْضا ممنعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربعي الفقمسي .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلى . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفى ليلي : ألا ترى إلى ابن كراع لا يزال مُفَزَّعاً

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قبيلاً : يا صاحبي ، يا خليلي . انتهى .

و (الكفار) المبالغ في جده وحدانية الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه . و (العنيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلاً في مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ)

« مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ » أى السكى ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير ^(١) أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمي في ماله ، لأنه لم يخص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد في الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش في المنطق ، وببده بالسطوة والبطش ظالماً ، كما قال قتادة : معتد في منطقته وسيرته وأمره . « مُرِيبٍ » أى شاك في الحق ، أو موقع صاحبه في الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشاني : الخطاب في (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللذين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه في أسفل غياهب مهواة الهيمولى الجسمانية ، وغياصة جب الطبيعة الظلمانية ، في نيران الحرمان . أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألقى ، ألقى ، لاستيلائه عليهم في الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة ، التي أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقعهم في نيران الجحيم ، وبين أنها من باب العلم والعمل . والكفران ومنع الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كها في لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى في غير مواضعها من المعاصي والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقها. وذكرها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة في قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ، بتفريطها في جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)

« الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره (فألقياه) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فألقياه) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعاني من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسر والمفسر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابي . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب (١) (وَمَلَأْمِكَّتْهُ ۖ وَرُسُلِهِ ۖ وَجِبْرِيلَ) كان حسفاً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك في (التسهيل) : فصلُ الجملتين في التأكيد بـ (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الزخمرى في (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحى ، وكلام أهل المعانى فى إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُوْ وَلَكِنَّ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئًا منه « رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُوْ » أى بالإرابة ومنع الإسلام ، وجعل له آخر معك « وَلَكِنَّ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانى : وقول الشيطان (مَا أَطْغَيْتُهُوْ ...) الخ كقوله ^(١) (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد ، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك . فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة ، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير ^(٢) : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

« قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصامكم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني ، وخالف أمرى ونهى في كتبى ، وعلى ألسن رسلى .

قال القاشانى : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لا اختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة في نفوسكم ، ورائت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجبتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ » قال ابن جرير^(١) : أى ما يغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحججة عليه .

وقال القاشانى : (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبت على السكال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ما ينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال ما يبنى بما يبق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآيات أن هذا التقاؤل على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشاني : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوته : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلاً . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُوا) ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين في أمر ، لتوقع نفع أولدة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أوقعا بسمعهما في خسران وعذاب ، تدارعا ، أو نسب كل منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضى الله عنه للنبي عليه السلام : ورأيت أهل النار يتماورون . وصوب عليه السلام قوله . انتهى .

الثاني إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُ) وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاؤل ، كما رأيت في حكاية المفاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المفاولة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُوا) - علم أن ثمَّ مفاولة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لدى عتيد ، قال الكافر : ربَّ هو أظفاني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أظفيتها ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلًا يقول : فإذا قال الله تعالى ؟ فتيل : قال لا تخصموا لدى . وذكر الواو في الجملة

الأولى لأنها أول المقابلة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملائكين ، وقول قرينه ما قال له - هذا ما يخص ما في الكشاف - .

الثالث - جوز قوله تعالى (يَا لَوَعِيدٍ) أن تكون الباء زائدة في المفعول ، وأن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَا تَخْتَصِمُوا) على تأويل تقديم الوعيد بالعلم به . أى : لا تختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع - دل قوله تعالى (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) على أنه لاخلف في إبعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف في ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة ، حيث قالوا : ماورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الكريم إذا وعد أنجز ووفى ، وإذا أوعد أخلف وعفا - أفاده الرازي - .

ووجه الاستدلال أنه لو صح ما ذكره للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف في أخباره - تقدس عن ذلك - مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يقاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس - ذكروا في سر المبالغة في (يَظْلِمُونَ) وجوهاً :

منها - أن (قَمَالاً) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .

ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها - أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلاً فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه ، قدس ذاته عما يتوهم غزول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » قال ابن جرير^(١) : فيه

لأهل التأويل قولان :

الأول - أن معناه : مامن مزيد. فمن مجاهد قال : وعدها الله لئلا ينها فقال : هلا وفيتك؟

قالت : وهل من مسلك ؟ !

الثاني - معناه : زدني .

أى : فلاستفهام على الأول إنكارى . معناه النفي ، وأيد^(٢) بآية (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرى ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . .) الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية . أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقابلة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية ، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة . وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر في (الاتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نقرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجأ الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها في نفسين . وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأننا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسليم الحصى في كف النبي ﷺ ، وفي يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة ، لاتسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب : وهو كلام حسن ، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا . انتهى ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر في الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة ، كما أوضحه السيوطي في (المزهر) والجرجاني في (أسرار البلاغة) . وفي شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها - والله أعلم - .

و (يوم) منصوب بـ (ظلام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (الزيد) إما مصدر كالحميد ، أو اسم مفعول كالبيع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ » أي قربت وأدنت « لِلْمُتَّقِينَ » أي الذين اتقوا ربهم تخافوا عقوبته ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « غَيْرَ بَعِيدٍ » أي مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعمول معاملته ، وأجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لا يحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

« هَذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوْعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما أتمننه عليه .

وقال القاشانى : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلى ، كى لا يتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

« مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانى : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعد بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيهم نفوسهم ، وتلذه أعينهم « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يحيط على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ

هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ » أى قبل هؤلاء الشركين من قريش « مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة ، كعاد وفرعون وحمود « فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ » أى فضربوا فيها وساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس ^(١) :

لقد نقبت فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمَةِ بالإيابِ

« هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتفقيهم فى البلاد ، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقّبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء الشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير ^(٢) : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مَوْضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت طوّفت) : أكرّث الطواف والمشي فى نواحي الأرض حتى شق على ذلك . وصرت

أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الخبر عنهم . وذكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ (فَنَقَّبُوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)
« إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قریش « لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .
« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه .
على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : المتفطن ، لأن غير المتفطن كالفاتى ، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن - نقله الشهاب - .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال و سامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعليم فيتذكر إذا قبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »
أى إعياء .

قال قتادة : أ كذب الله اليهود وأهل الفري على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ)

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ،
« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد ، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ)

«وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أى استمع، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديهـا من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء . قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تعيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِالْحَقِّ »

قال ابن جرير ^(١) : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

« ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفـاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا

الْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ)

« يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عَلَمِينَا يَسِيرٌ « أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعده من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بار يا رحيم !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١ - سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

قال المهايى : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية .
وآيها ستون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا)

« وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرُوءاً . أى نوعاً من الذرو
 ليعقدها سحباً . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بما يتطير
 من الرياح . أو الأسباب التى تدرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ،
 شبهت الأشياء العدة للبروز من كمن العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .
 و « الذَّارِيَاتِ » اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال :
 أذرى أيضاً . وأما (ذرا) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا)

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا « أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب
 والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل ^(١) :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمَرْزُوحُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوقر) بكسر الواو ، كالحمل وزنًا ومعنى . وقرى بفتح الواو على أنه مصدر سمي
 به الحمل .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء الفصرائية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي . . . *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا)

[٤] (فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا)

« فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلاً . أو الرياح الجارية فى مهايقها . أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذائسر « فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصرف السحاب .

تنبيهات :

الأول - ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن على رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح ، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن ، والمقسمات هى الملائكة . واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، لىكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى : فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . واستظهر الرازى أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك . واللفظ متسع بجوهره للكل - والله أعلم - .

الثانى - فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فليبين ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشى السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرى أو الرتبى .

الثالث - ذكر الرازى فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها - أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبي ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف في نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لا بصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل ، وعجزى عن ذلك . وهو يعلم في نفسه أن الحق بيدي ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول ، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل ، فلا يبقى إلا السكوت ، أو التمسك بالآيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها - أن العرب كانت تحتز عن الآيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبي ﷺ أكثر من الآيمان بكل شريف ، ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتاً . وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الآيمان ، ولنالاه المكروه في بعض الأزمان . ثالثها - أن الآيمان التي أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها في صورة الآيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهي سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسم . كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل : فلم أخرجها مخرج الآيمان ؟ نقول : لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف ، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصنئ إليه أكثر من أن يصنئ إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل في صورة اليمين ، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين ، في صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[٦] (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

« إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هو قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدق. فوضع الامم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية). «وَأَنَّ الدِّينَ» أى الجراء على الأعمال، إن خيراً نخير، وإن شراً فشر «لَوَاقِعُ» أى لحاصل. قال قتادة: وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم. القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُّتَخَلِّفٍ)

[٩] (يُوَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفِكَ)

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير السكواكب. و (الحبك) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسره. و (الحبك) بضمين جمع حباك، كمنال ومثل وكتاب وكتب. أو حبيكة كطريقة وطرق. قال زهير يصف غديراً^(١) :

مكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لِّضَاحِي مَائِهِ حُبْكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً، أية سلكوا.
قال الأصمعى: النجم: النبت الذى يقال له الثَّمِيلُ. وقال غيره: الماء مكَلَّلٌ بالنجم. وهو كل شئ من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل.
ويقال: نَجَمَ البقلُ: إذا طلع. ومنه: نجم قرن الظبية إذا طلع.
ريح خارق، يقال: هبت الشمالُ خَرِيْقاً، إذا هبت هبوباً شديداً.
لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، برز للشمس.
وحُبْكُ: طريق الماء. الواحد حَبِيْكُ.
يقول: إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء. ونسجها إياه: مرّها عليه.
(انظر شرح الديوان، صفحة ١٧٦، طبعة الدار).

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .
وعن الحسن ^(١) : (ذات الحبك) أى النجوم . قال : حُبِكَتْ بِالْخَلْقِ الحسن ،
حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشى تحبيكة ، فشبهت النجوم
بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فعنى
(ذَاتِ الْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بمجال من الجاذبية ،
فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى
الجاذبية التى يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهى إحدى معجزات القرآن العالمة . انتهى .
« إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخارصون
يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) « يُؤْفَكُ » أى يصرف « عَنْهُ
مَنْ أِفَكَ » أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضى فى مناسبة القسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم فى اختلافها ،
وتناقى أغراضها ، بالطرائق للسموات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالحرص والتخمين ، بقوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

[١١] (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين

(طبعة الحلبي الثانية) .

« قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى الذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون ، وأهو يوم هم .. الخ وفتح (يوم) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ » أى مقولاً لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه ، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (إِخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَمُّونَ)

[١٨] (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ)

[١٩] (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالحرص والتخمين في الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآءَاتَهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير ^(١) : أى عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروي ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ) فالمتعقون في حال كونهم في الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والقبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ » بمعنى : في الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها في أفعالهم وأقوالهم ، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَآ يَهْجَمُونَ » أى كانوا يهجمون هجومًا قليلًا ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير ^(١) عن أنس في الآية : أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين ، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن عليّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلّوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُوا قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلًا .

ثم ابتدئ ف قيل (مِّنَ الَّذِينَ مَآ يَهْجَمُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجمون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لطيفة :

في هذه الجملة الكريمة مبالغات في وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذي هو وقت النوم ، والهجوم الذي هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، في الآية استعجاب قيام الليل ، وذم نومه كله . والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضي : أى أنهم مع قلة هجوعهم ، وكثرة تهجدهم ، إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . قال الرازي : في الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويمتد من التقصير . واللثم يأتي بالقليل ويستكثره ، ويمتنع به . وفيه وجه آخر أطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بين أنهم يهجمون قليلاً ، والهجوم مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبينها في جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد ، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجمين قليلاً ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار ، في وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار . يأتون بفعل آخر طالباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر ، والثاني عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثاني الإشارة إلى الزكاة في الآية بعدها . والزكاة قرينة الصلاة في كثير من الآيات . وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم في التهجد ، بل وفي غيره ،

فيكون من إطلاق الجزء على السكل . وقد ذكر في أذكار الصلاة الاستنفار في مواضع منها .
كالركوع والسجود وبين السجدين وآخر الصلاة ، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن - وكان عليه السلام يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزخشرى في (أساس البلاغة) إنما سمي (السحر) استعارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .
« وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَنُّ غنياً ،
فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل في كفه ، وفقير متعفف ، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفي الصحيح ^(١) عن النبي عليه السلام : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظن له فيصدق عليه .

وروى الإمام ^(٢) أحمد عن الحسين بن على رضى الله عنهما قال : قال رسول الله عليه السلام :
للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسفده عن على كرم الله وجهه .

ويدخل في (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراد المتعفف . ولذا عول عليه الأكثر .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يصلون بها رحماً ، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كلاً .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٨ - باب

لا يسألون الناس إلخافاً ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٧٩٠

(طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لاجابة إلى الحرص والتخمين في باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ما تطمئن به النفس ، وينشليج له الصدر ، فيرون فيها مما ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظماً ، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات ، وما بينها من التفاوت في العقول والأفهام ، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها ، في المحل المقتدر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصىه قلم كاتب ، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكير والاعتبار) لشيخه أبي جعفر القرشي :

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ، ففيك معتبر
أنت الذي تمسى وتصبح في	دنيا وكل أموره عبر
أنت المصروف كان في صغر	ثم استقل بشخصك الكبير
أنت الذي تنعم خلقته	ينمى منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب	ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بما له القدر

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ (السماء) المزن ، وبـ (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأفوات . والمراد بـ (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوى ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ)

«فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ» أى مثل نطقكم . والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبى ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيد الأخير ما تأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبا قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للتجار ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُوْا إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَحْزَنْ ، وَبَشِّرْهُ بِعَلَمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَءٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« هَلْ أُنَمِّكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » يعنى : الملائكة الذين دخلوا عليه فى صورة ضيف . قال الزمخشري : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحي . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القرى ، أو أنهم فى أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ » أى سلام عليكم « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أَيْ أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُكُمْ . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فَإِنْ قَوْلِكَ لِمَنْ لَقِيْتَهُ : أَنَا لَا أَعْرِفُكَ ! فى قوة قولك : عرف لى نفسك وصِفْهَا .

« فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ » أى ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفّه ويعذره - قاله الزمخشري - وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال رَوَّغَ اللقمة إذا غمسها فرويت سماً . قال الناصر : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى . ومن مقlobاته (غور الأرض) والجرح . وسائر مقlobاته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أى قد أنضجه شيئاً « فَقَرَّبَهُ وَإِلَيْهِمْ » أى بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أى منه . قال القاضى : وهو مشعر بكونه حفيداً . والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب ، إن قاله أول ما وضعه . وللاينكار ، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أى أضرها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلَمٍ عَلَيْهِ » أى يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » أى صريحة « فَصَكَتْ » أى لظمت « وَجْهَهَا » أى تعجباً ، على عادة النساء فى كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك، فإنما نخبرك عن الله . فاقبلى قوله، ولا تتوهى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ أَعْلَمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسله ، أو معلمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى بإيجاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ » يعنى بيت لوط عليه السلام « وَتَرَكْنَا فِيهَا » أى فى تلك القرية « آيَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوى الدال على الأخرى « لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَىٰ » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور .
أى وتركنا في قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقيقة دعواه .
« إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ »
أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به
كناية عن الإعراض . والباء للتعدي ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه
بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ
سَاحِرٌ » أى هو ساحر * « أَوْ مُجْنُونٌ » فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ »
أى فأغرقناه في البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ)

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا في عاد ، قوم هود عليه السلام آيةً « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك .
« مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ » أى الشئء الهالك . وأصل الرميم :
البالى المقت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَتَوَّأَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)

« وَفِي ثَمُودَ » أى وتركنا فى ثمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى . « فَتَوَّأَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » يعنى العذاب الحال بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهاراً . « فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلاً عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِي ثَمُودَ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولاً لمضمّر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذْنَاهُ) أو على محل (وَفِي مُوسَى) . « مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ)

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا ببناءها . « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا » أى مهدناها ليقمتعوا بها « فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ » أى لهم . وفى إثبات صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلاً واسماً ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف ، ويؤثر عليه غيره فى آخر . والمرجع الذوق - كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكراً وأنثى ، أو نوعين متقابلين .
قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . ليل ونهار . شمس وقر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير^(١) :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانياً له ، مخالفاً فى معناه . فكل واحد منهما زوج للآخر ، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلَقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافة ، إذ كل ما صفت به فعل نوع واحد دون ماعداه ، كالنار التى شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد ، وكالثلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير^(٢) : أى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشئ وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شئ ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ » أى فَرِّوْا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فرلأمنه . فهو استعارة تشيلية . « إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوِّفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذكّرهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة . قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير - كما قيل - بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)

[٥٣] (أَتَوَاصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ)

[٥٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ)

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » يعنى تقليداً لأبائهم ، واقتداءً لأنارهم ، فورد جهالتهم مؤتلف ، ومشروع تغفتم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْا بِهِ » إنكار وتمجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لانكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلاً عن التفوه بها . أى أوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه . وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر توأصيتهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية من قبلهم بذلك - أفاده أبو السعود .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى ^(١) (وَدَعَّ أَذْنَهُمْ) وقوله ^(٢) (وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) . « فَمَا أَنْتَ بِمَكُومٍ » أى فى إعراضهم ، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شىء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة - بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأموراً بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى ^(٣) (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) . وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَا أَنْتَ بِمَكُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكى بعد . فالصواب ما ذكرناه فى تفسير الآية ، لأنه المحاكى لنظائرها . وأقعد التفاسير ما كان بالأشياء والنظائر - كما قيل - : وخير ما فسرته بالوارد .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / الزمل / ١٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظمهم « فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » أى من قدر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا من سواهم ، إذ هم العابدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادة تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا نفال سعادة فى الدارين ، إلا بها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا)

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

« مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » ببيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبده لا يقاس به شأن عبده الخلق معهم ، فإن عبدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسلادة ، وبواسطة مكاسب عبدهم ، قدر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعباد الخالدين بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغي والفساد، « ذُنُوبًا » أى نصيباً وافرأ من العذاب « مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكّمة . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القرينة من الامتلاء . وهى تذكّر وتؤنّث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً، شراً كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيراً كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس (١) :
وفى كل حيّ قد خبِطَ بنعمة فحقّ لشأسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ
وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .
« فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بدّ آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ « أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهنم . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر . قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوى - والله أعلم - .

(١) قائل البيت هو علقمة الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحًا بكَ قَلْبٌ فى الحِسانِ طُرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ
يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذّنُوب الدلو . أراد حظاً ونصيباً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢ - سُورَةُ الطُّورِ

قال المهايى : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحي ، فالوحي أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل ، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية ، وآياتها تسع وأربعون .

روى الشيخان^(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخاري^(٢) عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إني أشتكي ! فقال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت ، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة والطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة والطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالطُّورِ)
- [٢] (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ)
- [٣] (فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ)
- [٤] (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)
- [٥] (وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ)
- [٦] (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

« وَالطُّورِ » أى طور سينين ، جبل مَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بمور تجليه تعالى .

« وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعم الكتاب المنزلة .
 « فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطرّ في ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمار والطائفين والعاكفين والمجاورين . وروى أنه بيت في السماء بحيال الكعبة من الأرض . يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب مجاء في سورة (التين) من عطف (الْبَلَدِ الْأَمِينِ) على (طُورِ سَيْنِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايى : أوردته بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجل الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية^(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْرِهِمْ) وآيات أخر .

« وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسواء البيت الذى

هو سقفه .

« وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله^(٢) (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن^(٣) جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع مأؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجَّر) الإيقاد أو الامتلاء . فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ . ولاتنس ما قدمنا فى أوائل (الذَّارِبَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

[٨] (مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ)

[١٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . (٢) [٨١ / التكاوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩ و ٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

- [١٣] (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)
 [١٤] (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)
 [١٥] (أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)
 [١٦] (أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين ، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا » أى تضطرب . « وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثورًا « فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق ، الجاحدين له « الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دَعَمْتُ فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرُ هَذَا » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا . قال الزمخشري : يعنى أم أنتم عمى عن الخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقرير ونهكم . « أَصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار . « فَاصْبِرُوا » أى على ألمها ، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران . الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لا تعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لرَبِّكم ، وكفركم به .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُحْزَوْنَ ...) الخ ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَلِكِهِمْ مِمَّا أَسَاءُوا رَبَّهُمْ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَلِكِهِمْ مِمَّا أَسَاءُوا رَبَّهُمْ * أَي مثليذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة * وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * جمع (عينا) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ * أى افقت آمارهم فى الإيمان والعمل الصالح * أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ * أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً * وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ * أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً * كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * أى بما عمل من خير أو شر مرتين به ، لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٣] (يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ)

[٢٤] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)

« وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر .
 « يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنٍ ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٦] (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[٢٧] (فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ)

[٢٨] (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ أَكْبَرُ الرَّحِيمِ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا .
 « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (السَّمُومِ) الريح الحارة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

في ريح السموم لمشهدته في الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « الرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رضى من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب في بعضهم ، ولكنك رسول الله حقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للهكم بهم والتهديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا » أى عقولهم بهذا التناقض في القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العقاد، مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُو » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً، فلذلك يرمونه بتلك القرى . « فَلَمَّا تَوَأَّمُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ » أى فى الهداية بذلك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله ^(١) « قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْتَ بِهِ » . « إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ)

[٣٧] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَّبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ)

[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)

[٤٠] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤١] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ » قال ابن جرير ^(٢) : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له ببرة ، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق ، فهم لذلك لا يأترون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن لخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعد لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحي ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم ، الملائكة إناثاً ، وأنها بقاته تعالى ، مع أنه ^(١) (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى أجره على إبلاغك بإيها رسالة الله تعالى ، « فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُثْقَلُونَ » أى من أدائه ، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » أى المكور بهم دونك ، فتق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستمعون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم^(١) (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا). قال الزخشرى: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْنَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْنَهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلهم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إماعذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم - أقوال للسلف - واللفظ صادق بالجميع « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأُصِبرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَأُصِبرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيهِ، وبلغ رسالته.

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠-٩٢] .

« فَأَيْنَكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير^(١) : أى بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعنى أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة ، استمرت لذلك ، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونسكتة جمع (العين) هنا وإفرادها فى قصة السكيم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة فى الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظه له بأعينهم ، لأن المقصود تصبير حبيبه على المسكيد ومشاق التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَمِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» أى من منامك .

روى الإمام أحمد^(٢) عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تمارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لى (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضاً ثم صلى ، قبلت صلاته . وأخرجه البخارى^(٣) فى صحيحه وأهل السنن .

ورود من أذكّر الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً . ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .
وقيل : حين تقوم إلى الصلاة - روى مسلم^(٤) فى صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول فى

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١٩ - كتاب التهجيد ، ٢١ - باب حدثنا على بن عبد الله ، حديث رقم ٦٣٤

(٤) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .
ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن
مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس ، فكثرت فيه لفظه ، فقال
قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك
وأتوب إليك - إلا غفر الله ما كان في مجلسه ذلك - رواه الترمذي وصححه ، وكذا الحاكم .
وأخرج أبو داود ^(٢) والنسائي والحاكم عن أبي بزة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ
يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا
أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يا رسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقول
فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ،
وعلله ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على
الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أى اذكره واعبد بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى ^(٣)
(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الْكَافِي) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب في كفارة المجلس ، حديث ٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى في أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف في كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معمرى عن أسانيدھا في كتابی (الأوراد الماثورة) .

«وَأَدْبَرَ النُّجُومَ» أى : وسبحه وقت إدارھا ، وذلك بميلھا إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عني بذلك إمافريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كنّا نحدّث أنّهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن عائشة رضي الله عنها أنّھا قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر . وفي لفظ لمسلم^(٢) : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشري : وقرئ (وَأَدْبَرَ) بالفتح ، بمعنى في أعقاب الفجوم وآثارها إذا غربت .
تنبيه :

قال في (الإكليل) عن الكرماني : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدار لها ، وإنما ذلك بالاستقار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجّد ، ٢٧ - باب تعاهد ركعتي الفجر ،

حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٥٠٩٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣ - سُورَةُ النَّجْمِ

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخارى^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع في رواية غيره ، تسمية غير أمية - كما بسطه ابن حجر في (الفتح) - .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ٤ - باب فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقض . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغى . وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بحاسن شئونه المنيفة . فهو تبسكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحى إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْيٌ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددى . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحي ، وقواه بما فى (مراسيل) أبى داود عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن . واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني : كون مرجع الضمير للقرآن ، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (أُفْتَرَنَهُ) والقرينة من أكبر الخصصات . وجلى أنه ﷺ كثيراً ما يقول بالرأى في أمور الحرب ، وأمور أخرى . فلا بد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لا قوة في المراسيل ، لما تقرر في الأصول . وبأن الآية لا تدل على منع الاجتهاد المذكور ، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً . لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً ، لا نطقاً عن الهوى . لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ما ظننت كذا فهو حكى) أى كل ما ألقىته في قلبك فهو مرادى ، فيكون وحياً حقيقة ، لا ندراجة تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراد . فما قيل عليه من أن الوحي الكلام الخفى المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادى إلا بعموم المجاز . مع أنه يأباه قوله ^(١) (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) غير وارد عليه ، بعدما عرفت من تقريره - نقله في (العناية) عن (الكشف) - وتفصيل المسألة في مطولات الأصول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى)

«عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه ، يعنى جبريل عليه السلام . كما قال ^(٢) (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) و (أَلْقَوَى) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرثا بكسر الراء في جمع رشوة بضمها ، والحبيا في جمع حبة - نقله ابن ^(٣) جرير .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] . (٢) (٨١ / التفسير / ١٩ و ٢٠) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه . والعرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمرت الجبل) إذا أحكمت قتله « فَاسْتَوَىٰ » وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزخشرى : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء - كما قال شراحه - سببية ، لأن تشككه يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُ) أى علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية . وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرة من الأمور - حكاه القاضى - . قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لا مصطلح أهل الهيئة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام - قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير^(١) ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد . وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استوى جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء - كذا قال - ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ماقاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله^(٢) (أَذَا كُنَّا تُرَابًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحامى الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَأَبَآؤُنَا) فعمط بالآباء على السكتى في (كُنَّا) من غير إظهار (نَحْنُ) فكذلك قوله (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّا نَنْبَغُ يَصْلُبُ عُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرْوَعُ الْمَتَفَصَّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلّى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدره المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (أَقْرَأْ) ثم فترة الوحى فترة ذهب النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلماهم بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبنى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأنق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانى ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَاسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبىّ بالأنق الأعلى ، لأنه حين كَوّن النبىّ

بالأنق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكّل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية السكبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبىّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدره المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايى وافقهما وعبارته :
(فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار (بِالْأَفُقِ الْأَعْلَىٰ)
الروحانى . انتهى .

وكذا الفخر الرازى وعبارته :
المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقى ،
فسد الشرق لمظلمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان
العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

(فَإِنْ قِيلَ : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ^(١) (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ) إشارة
إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ
رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول :
فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئى . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان)
أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ
الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو
واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إلى غير
ذلك ، وقوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) كل ذلك يدل على
خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى موضعه ، عند ذكر
تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل
عليه السلام أرى النبي ﷺ نفسه على صورته ، فسد الشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرق وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازي .

وفي القرطبي حكاية أقوال آخر ، وعبارته :

(فَاسْتَوَى) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه في السماء ، بعد أن علم محمداً ﷺ

- قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير - .

وقيل : (فَاسْتَوَى) أى قام وظهر في صورته التي خلّق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَاسْتَوَى) أى استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - في صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثاني - في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَاسْتَوَى) فاعتدل . يعنى محمداً في قوّته ، والثاني في رسالته

- ذكره الماوردي - .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثاني (شَدِيدُ الْقُوَى) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثاني - أنه النبي ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَاسْتَوَى) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش - على قول

الحسين - انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال في الآية ، وسيأتى في أول التنبيهات إيضاح

ما اخترناه منها ، وإنما أخرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّى » أى إليه . قال ابن جرير^(١) : هذا من المؤخر الذى معناه التقدّم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلى فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبيّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل به (أراد الدنو) - كما فى الإيضاح - .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أى كأن مسافة ما بينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدًّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيمه : ما بين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابى قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداها بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم يزعانها معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدها رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه - كذا قال مجاهد ، وارتضاء عامة المفسرين - انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَى) كقوله ^(١) : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين في رأى الرأى . أى لتقارب ما بينهما ، يشك الرأى في ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه في رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر في (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرأى يقول هم مائة ألف أو يزيدون . وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى . و (أَدْنَى) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبي ﷺ . وإنما أضر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإيهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)

« مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . معنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق وصدق . وقرئ (ما كَذَّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملك ربانى ، لا خيال شيطانى ، كما قال ^(٢) (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية في أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوثر / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفْتُمِرُّونَهُ وَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ)

« أَفْتُمِرُّونَهُ وَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانى : أى أفتخصمونه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهاها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصح المجادلة فى المرئى ، لأنه لا يجوز الجدل فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت الشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ)

[١٥] (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ)

[١٦] (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرة أخرى من النزول ، وتأكيده الخبر عن الرؤية

الثانية هذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه .
«عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . (المنتهى) : اسم مكان ، أو مصدر ميمي . وقد جاء فى الصحيح^(١) أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبت بالسدر ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبت بها ، وسميت (سدر) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث^(٢) أن كل نبتة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر - قاله الشهاب - .

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال القاشانى : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها . «مَا زَاغَ الْبَصَرُ» أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . «وَمَا طَفَى» أى ما تجاوز حرائقه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستقيماً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالاته . وفيه غاية التفعيم لقامه ، وأنه من الآيات الكبر . قال الفاصر : ويحتمل أن تكون (الْكُبْرَى) صفة لآيات ، ويكون المرئى محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أموراً عظيماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول - قدمنا في تفسير قوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى ما في بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازي ومن وافقهما ، وبعض أقوال حكاهما القرطبي . والأقرب في معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك . ونحن نقول في تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته السكرية وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما في سورة التكويد تمام المشابهة ، فقد قال تعالى ^(١) : (إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنو واقتراب لم يذكر في (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبي ﷺ في معارج السموات وقتاً فوقتاً . وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه في (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان في (النجم) زيادة هذا التكرير والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواء ، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم ، جم المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيه تنزل من الأفق ، ودنا إليه ، وكان في غاية القرب منه ، والتمسك من رؤيته ، وتلقى الوحى عنه . وذلك كله حق وصدق لا مرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره ما يصدق فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى في مكان معين لا يشتبه على رائيه ، وهو سدره المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لا خفاء به عند المتدبر ، وكاه رد على المشركين المفتريين ، وإقسام على حقيقة الوحى والتزليل ، وصدق ما يخبر به ، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فما بقي بعد التعمت

(١) [٨١ / التكويد / ١٩-٢٣] .

والجحد إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة .
هذا ملخص معنى الآيات ، وما عدها فتوسم وحمل اللفظ على ما تجوزة مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد - والله الموفق - .

الثاني - ما قدمناه من رجوع الضمائر في قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) ... « الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنو والتدلى في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه - كما قالت عائشة وابن مسعود - والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .
وروى البخارى ^(١) في هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح .
وروى الترمذى ^(٢) عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره في صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في جياذ - مكان بمكة - له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع في حديث شريك في البخارى ^(٣) من قوله (ودنا الجبار رب العزة فتدلى ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

بجي بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ٣ - حدثنا

ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٧ - باب قوله وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما في سورة النجم ، تؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تسكّم كثير من الناس في رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى) ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : وقع في حديث شريك في الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذر قال : يارسل الله ! رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . وفي رواية : رأيت نوراً - أخرجه مسلم ^(١) .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة ^(٢) وعن ابن مسعود ^(٣) . وكذلك هو في صحيح مسلم ^(٤) عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعنا) .

مخالف من الصحابة في تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القسيم في (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما في لفظ آخر : رأيت نوراً .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ثم قال : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) والظاهر أنه مستفده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل ، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ربي عز وجل ، فإنه حديث إسناد على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : أنا في الليلة في أحسن صورة (أحسبه ، يعنى في النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي (أو قال نحري) فعملت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلى ؟ قال قلت : نعم ! يختصمون في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المسك في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المسكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضني إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى ^(١) (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) كقوله ^(٢) (لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع . لأنه قال (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث - ذهب بعضهم إلى أن هذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوي ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى ما فوق السموات السبع ، كما ذكر في أحاديث المعراج من سدره المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبي : لما كان الإسراء مقدماً في الوجود على المعراج ، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج وما فيه . وكان ما في المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ ما لا يجوز عليه ، فقال « وَالنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحي، بأنه تعليم ملك كريم، مرثى للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس، لا لإثبات المعراج.

ثم من الغرائب أيضاً هنا، قول بعضهم محاولاً سرّ إفراة الإسراء عن المعراج، وذكر كلِّ في سورة، ما مثاله: إن الإسراء أنزل أولاً وحده، حملاً للمشركين على تسليم ما وضع صدقه ﷺ فيه، توصلاً للتصديق بما وراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشركين أولاً بالإسراء إلى المسجد الأقصى، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك وقع، كما ذكر في الروايات. وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام، وأنزل الله تصديقه في سورة النجم. انتهى. فكل هذا مما لا سفد له، نعم! روى البيهقي وابن أبي حاتم وابن جرير في حديث مطول؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب. إني أتيت الباحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا. إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين، ولا حجة في الأخبار إلا مرويهما. وبالجملة، فالمعول عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر في القرآن مطلقاً، وما ورد في هذه السورة وسورة التكاوير، فلا علاقة له بالمعراج، وإنما هي رؤية النبي صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم. وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية. لصريح حديث البخاري في ذلك من طرقه التي عن أنس ومالك بن أبي صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر في حديث المعراج، بحسب رواية البخاري التي هي أصح الروايات بالإجماع، أن النبي ﷺ سار أولاً إلى بيت المقدس، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة، وذلك يدل على أن ما ذكر في القرآن مما وقع بقطعة، هو غير ما ذكر في الحديث، مما وقع مناماً في وقت آخر،

وإلا لذكرا معا في سياق واحد ، إما في القرآن ، وإما في أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذي لم يحصل إلا في بعض روايات لا يعول عليها ، وهي من خلط بعض الرواة الحوادث بعضها ببعض . انتهى - والله أعلم - .

ثم قال تعالى مفكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن لعبادة تعالى وحده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)

[٢٠] (وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ)

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ » قال ابن كثير : هي صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير^(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (اللَّاتُ) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشري : هي فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللات) بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السوق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه . « وَالْعُزَّىٰ » وهي شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزيز) وقال الزمخشري : أصلها تأنيث الأعز .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْوَةٌ ثَلَاثَةٌ الْأُخْرَى » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .
روى البخارى عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال القاضى : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يعنى فيها القرابين ، أى ينحدر .
وقال الزمخشري : وكأنها سميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تنى عندها ، أى تراق .
وقرى (مناة) مفعلة من (النوى) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .
فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .
وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (الثالثة) للتأكيد ، و (الأخرى) بيان لها ، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (الْأُخْرَى) ما ثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودى ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودى ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالة على المعنى الأصلى ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة ، فإن إشعارها بالتأخير الوجودى ، ثابت لم يغير ، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودى ، لأن (الأفعل) و (الفعل) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما . وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقديم معيار في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني - قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرت عظمها العرب كعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنجر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكافت لقريش ولبنى كنانة (الْعُزَّى) بنخله ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتهم ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عزى ! يا عزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبه وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلها مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علي بن أبي طالب . انتهى .

الثالث - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحوي البصرة يقول : إذا سكنت قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللات ، فجعله من اللت الذي يلت . ولغة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالياء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالياء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحوي الكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل مالم يصف ، أن يكون بالهاء^(٢) (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)^(٣) (وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجأز بالهاء والياء ، فالياء للإضافة ، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثاني ، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب ، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوهٌ لَهُ الْأُنثَىٰ)

[٢٢] (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ)

« أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوهٌ لَهُ الْأُنثَىٰ » قال الزمخشري : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، مع وأدهم البنات ، فقليل لهم : (أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوهٌ لَهُ الْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث ،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنسكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تعملون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهن آلهة ؟ انتهى .

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام في (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرني) وفي كيفية دلالتها على ذلك ، واختلاف النحاة في فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرى ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضى . أو علمية ، ففكون في محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها في تأويل : أهي بنات الله ؟

قال السمين : وكان أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام . وإنما أوتر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائزة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكروهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير^(١) : والعرب تقول (ضِيزَةُ حَقَّة) بكسر الضاد ، و (ضُزْتُهُ) بضمها ، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضُزَى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن علي (ضِيزَى) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازه يضيزه) إذا ضامه وجار عليه ، فعنى (ضيزى) جائزة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما - أن تكون صفة على (فُعِلَى) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء . كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والمشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء ، ولم لا قيل (فعلى) بالكسر ؟ .
 فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات (فعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد
 بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورؤيتي وما أشبهه ، إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك . حكى ثعلب :
 مشية حيكي ، ورجل كيكي ، وحكي غيره : امرأة عزهى وامرأة سملى ، وهذا لا ينقض على
 سيبويه لأنه يقول في (حيكي وكيكي) كقوله في (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسملى
 فالشهور فيهما عزهاة وسملاة .

والوجه الثاني - أن تكون مصدراً كذا كرى . قال الكسائي : يقال ضاز بضيز ضيزى ،
 كذا كرى ذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه
 خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياء ، لكنها لغة
 التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه بضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من
 الأول . و (ضيزى) في قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصلياً ، لما
 تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل في (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت
 الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء
 الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .
 وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة
 كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى)

« إِنْ هِيَ » أى الأسماء المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّا أَسْمَاءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبىء هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلاً . أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لانصيب لها أصلاً ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لاطائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَا » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات « أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبع « مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى برهان يتعلق به « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » أى تشبهه أنفسهم .

قال ابن جرير ^(١) : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحي ؛ أن عبادتها لا تنبىء وأنه لا تصاح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأياً ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . ومن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و ٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكمال) : استدل بقوله (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية . ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء باسموها به ، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون السك اصطلاحاً منهم .
واستدل بقوله تعالى (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد في العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .
أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأي على الدين ، فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

« أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » أى ليس له ما يشتهي من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد ، وتعمته في دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمين يزعه . فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم ، كقوله (١) (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

« فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى » أى فصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ما تسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال (٢) (وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَالْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبيل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى)

« وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علقوا به أطاعهم من شفاعاة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأتى لهذه الطواغيت أن تفتت على هذا المقام ، ولها من الذلة والصفار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزن (كسانا الأميرحلة) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة ، واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

[٢٩] (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدلاً به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم النعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلاً ، وترك إيدائهم . وقول الزمخشري : أى أعرض عن دعوة من رأبته معرضاً عن ذكر الله ... الخ - لا يصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين ، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله ^(١) تعالى (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التثريب ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)

« ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء - كما حققه الشهاب - والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » أى : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقدير العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تنبيه على سمة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يميزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى ، وهى الجنة . ثم بين صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ » أى ما كبر الوعيد عليه من المناهى « وَالْفَوَاحِشَ » يعنى ما خفى منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا اللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثله أبو هريرة بالقبلة والغزوة والنظرة - فيما رواه ابن جرير (١) -

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وأصل معناه : ما قل قدره . ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة . وقيل : معناه الذنوب من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ما ذكر . أى إلا اللهم بما دون الكبائر والفواحش ، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً ، و(إلا) صفة بمعنى غير - وتفصيله في (الغاية) - .

وحكى ابن جرير^(١) عن ابن عباس وغيره ؛ أن معنى (اللهم) ما قد سلف لهم مما أُلوا به من الفواحش والكبائر في الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .
وعن ابن عباس أيضاً قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

وقال الحسن : (اللهم) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى في معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتنب الكبائر ، كما قال تعالى^(٢) (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .
«إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ» قال ابن جرير^(٣) : أى واسع عفو للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» قال^(٤) ابن جرير : أى أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها «وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» أى حينما يصوركم في الأرحام «فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ» أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى» أى بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح . وهذا كقوله تعالى^(١) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي بكرة قال : مدح رجل رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسبي ، ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

[٣٤] (وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى)

[٣٥] (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع المطاء بخلاً وشحاً « أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

(١) [٤ / النساء / ٤٩] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ،

٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣٢ و ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِذْ هَمَّ اللَّذِي وَفَّىٰ)

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِذْ هَمَّ اللَّذِي وَفَّىٰ » أى بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال ^(١) (وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِذْ هَمَّ رَبُّهُ وَبَكَلِمَتٍ فَأْتَمَّهُنَّ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آئمة ، فإن إنعما عليها .

قال القاشاني : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت في النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التي هي الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضعافها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول - قال ^(٢) ابن جرير : إنما عني بقوله (أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذي

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول : ألم يخبر قائل هذا القول ، وضامن هذا الضمان ، بالذي في صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آئمة إثم أخرى غيرها (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) أى : وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردّاً على ما كانوا يتخرونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجأاً وجهلاً . ومع ذلك ففهموها الشمولى جلي .

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) : استدل به على عدم دخول النية في العبادات عن الحى والميت . واستدل به الشافعي على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى .

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن تبعه ؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حشهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به - فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث (٢) : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية - كالوقف

(١) أخرجه مسلم في : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١ - باب الحث على الكسب ،

ونحوه - هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال ^(١) تعالى (إِنَّا نَخْنُ نُخَيِّ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتمدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيح ^(٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث - قال الرازي : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى (لِلْإِنْسَانِ) فإن اللام لعود المنافع ، و(على) لعود المضار . نقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه ، في المنافع والمضار . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكر ، إذا اجتمعت الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) و(الأوفى) لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالثلث أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أي يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشيء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أي يراه ، كقوله تعالى ^(٣) (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) « ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، ف (الجزء منصوب بنزع الخافض ، (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يقعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه - كما فى (الكشاف) - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ)

[٤٤] (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ)

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عام ، أى إليها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاص بالنبي صلوات الله عليه ، ففيه تسليية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالالوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَى' أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعم .

قال الرازى : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعملان ، فلا يقدر أحدهم الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعمل بأمر ، فلا بد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أَمَات من شاء من خلقه ، وأَحْيَا من شاء . قال ابن جرير^(١) : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصميمه الروح فيها « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى » أى ابتدع إنشاءها من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لاتعلم ، كما قال^(٢) (وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى » وهو نجم مضى خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

[٥١] (وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى)

[٥٢] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحابى الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ)

[٥٤] (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

[٥٦] (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ)

« وَأَنَّهُ وَ- أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (الْأُولَىٰ) لتقدمها فى الزمان. « وَتَمُودًا » أى قوم صالح « فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْفَىٰ » أى أشد طغيانًا وعصيانًا من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَالْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمرها . « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوى الذى صب عليها . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتب وتشك وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقفاء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم . « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَرَفَتِ الْأَرْضُ)

[٥٨] (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

« أَرَفَتِ الْأَرْضُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى (الْأَرْضُ) للعهد .

وقيل : الْأَرْضُ علم بالغلبة للساعة هنا ، لئلا يلزم وصف القريب بالقرب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربهِ ، كما يدل عليه الافتعال في (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله^(١) (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف ، أى نفس كاشفة ، أو حال كاشفة . أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التأنيث و (مِنْ دُونِ اللَّهِ) بمعنى غير الله ، أو إلا الله . وقيل : السكشف بمعنى الإزالة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغطاء) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ)

[٦٢] (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

(سجدة)
(لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر « تَعْجَبُونَ »

أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيقته الدمع المردار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى ممانفة من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكره كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية^(٢) (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) « وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ » أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبي ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شاخين .

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن .
يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى (الإكليل) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللاهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَمِدُونَ) وفسره السدى بالاستكبار .

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد^(١) عن المطلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم . فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد - ولم يكن أسلم يومئذ المطلب - فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه - ورواه النسائى - .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤ - سُورَةُ الْقَمَرِ

وتسمى سورة (أُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهي مكية . وآيها خمس وخمسون .
قال ابن كثير : ورد في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ به (قاف)
و (وَأُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) في الأضحى والفطر . وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالهما على
ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من
المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ)

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة . كما قال ^(١) (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال ^(٢) (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . قال ابن جرير ^(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرهم لهم بالاستعداد لأحوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون . « وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير ^(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراههم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سحراً نأ محمد . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابي أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبي ﷺ بعث رحمة ، وأمن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطباع حريصة على إشاعة ما لم يعد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى . وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزخشري والبيضاوي ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قوى ، من (مررت الجبل) إذا أحكمت فتله . أو مازا زاهب لا يبق ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانى الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً . وجملة (وإن روا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد - كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمفسر حديث غير مجمع على تواتره ، جنسية كبرى ، وزلة عظيمة . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرق الكلمة ، ونقر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجأ ، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقاتلها ، فاذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراعى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم ، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه ، وأشاروا له فى مواضع ، فقررروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناى فى (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالي فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلّى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها - أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجد عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبداله معنى من المعانى التى تبين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها - أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرها ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول على رضي الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين : أحدهما - أن يكون له فى الشئ رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالاحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبساً على خصمه ، وكالجاهل المتفخم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما - أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسر بها بعض السلف بشئ ، أوردوا فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام - وبالله التوفيق - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ)

« وَكَذَّبُوا » أى بآيات الله بعد ما اتهم حقيقة « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى ما زين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لا بد أن يستقر إلى غاية، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

[٥] (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أى غيره صلوات الله عاياه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الأحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتغال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أو خبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أى غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بآدى بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) يعنى أى شئ تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى^(٢) (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

(٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

(١) [١٦ / النحل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ)
 [٧] (خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)
 [٨] (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :
 « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة
 كالأمر في قوله (كُنْ فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ » أى
 فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ » أى من
 الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » أى في
 السكثرة والتموج والانتشار . والجراد مثل في السكثرة « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين .
 مَادَى أَعْنَاهُمْ إِلَيْهِ . « يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرَ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ)
 ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)
 « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » أى زجر
 عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد .
 وهو كقوله في السورة ^(١) (فَمَعَاطَى فَمَقَرَّ) فإن معاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من
 جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عِبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . قالتكذيب الخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتواً ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم . ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيهه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر . « فَالْتَقَى الْمَاءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ » أى على حال قدره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام - كما بسطه في (الكشاف) - .
(وَدُسُرٍ) جمع دسار بكسر الدال ، أو دسُر كسقف وسقف ، وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لفوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا » أى قصة نوح « آيَةً » أى جعلناها عبرة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذكرة) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ » أى عذابى لهؤلاء الكفرة ، قوم نوح ، وإنذاراتى بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقتربونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » أى سهّلناه للادّكار والانعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنَزَّعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيهم هوداً عليه السلام ، بمنزل ما كذبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المראה لعظم بلائه . « تَنَزَّعُ النَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » أى أصول نخل منقطع عن مغارسه . وأصل (مُنْقَعِرٍ) ما أخرج من القمر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » كرّره للتوبيخ وللتنبيه على فرط عتوهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ)

[٢٤] (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَأَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ)

[٢٨] (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَظَرٌ)

[٢٩] (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي)

[٣١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » إِنَّا إِذَا لَفِئَتِ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ « أى جنون ، أو غناء . فهو اسم مفرد . وقيل : جمع سمير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مراتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشري قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى . وقالوا (وَاحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالا ونقراً « بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استبعادنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَنَ الْكَذَابُ الْأَشِرُّ » أى المتكبر عن الحق ، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَأَرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعون بها « وَأَصْطَبِرْ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى » فتناول النافعة بيده « فَمَعَرَّ » أى فمقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذ

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها . أو كالخشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكمهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخدوا وهدوا ، كما يهدم ويبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفیان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشياً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ)

[٣٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة . أورياً تحصبهم بالحجارة ، أى ترميهم « إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يحسبهم سوء « نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا ، وهو علة لـ (نجينا) « كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيهِ . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ » أى لوط « بَطْشَتْنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإذاراته ، تكديماً له « وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ » أى طابوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا ينجزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعجى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال « فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِيرٌ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ » قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذ كلاً واثعلاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله^(١) (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله^(٢) (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردتها

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدة لا يغالب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شئ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكْفَارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النعمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضهم بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصاص بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة لللفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ)

«سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ» يعنى جمع كفار قريش «وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» أى يولون أديبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم . وإفراد (الدبر) لإرادة الجنس ، أو رعاية الفواصل ، ومشاكله قرآئنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب ، وهو من معجزات القرآن . «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» قال ابن جرير^(١) : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب . «وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ» أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمر مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سبهمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ)

«إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أى عن الحق فى الدنيا «وَسُعُرٍ» أى نيران فى الآخرة . وقال القاشانى : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

«يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» أى يجرون عليها . «ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ» أى حرها والمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرٍ) مكنية ، وفى (المس) تخيلية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو المسحاجاز مرسل بملاقة السبيية للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم - أعاذنا الله منها - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها . ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذابة ألها جزء الزيف عن الهدى . وهذه الآية كآية^(١) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ وَتَقْدِيرًا) ، وآية^(٢) (سَمِيعِ) أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أى قَدَّرَ قَدْرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثل للجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهَب بأسه ، ويُتَّقَى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانى : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معين ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمى في الشرع بـ (كُنْ) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى^(٣) (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١-٣] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .
قال الشهاب : أصل معنى (الأشياء) جمع شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الانبعاث .
ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ » أى ميعط بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُسْتَطَرٌّ » أى مسطور لا يحصى ولا ينسى ،
كما قال تعالى ^(١) (وَيَقُولُونَ يَبُولُغَتْنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه ^(٢)
(وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣ و ١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

يا عائشة ! إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا .

قال ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجه من طريق سماعيل بن مسلم بن مالهك المدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سماعيل بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سماعيل : فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سماعيل ! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأناه آت في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا	إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ،	عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجُرْهُوَكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لَا تَكُنْ	صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ	طَارَ الْفَوَادُ وَالْهِمَّ التَّفْكِيرًا
فَسَأَلَ هِدَايَتِكَ الْإِلَهِ ، فَتَقَدَّسَتْ	فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، واجتناب نواهيه ، « فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ » قال ابن جرير^(١) : أى في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشري : في مكان مرضى . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق الميَّسَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسول ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِنْدَ مَلِيكَ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشاني : أي يقدر على تصريف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأنفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجلب عن البيان ، وتكمل دونه الأذهان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال المهايي : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجميلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم .
وهي مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .
وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّحْمَنُ)

[٢] (عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى بصّر به ما فيه رضاء، وما فيه سخطه، برحمته ليطلع باتباع ما يرضيه، وعمل ما أمر به، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعده عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضى : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدرها بـ (الرحمن) وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصدق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[٤] (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما فى الضمير ، وإفهام الغير - لما أدركه لتلقى الوحي ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو فى الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشري : وإخلاؤها من العاطف لمحيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا - كما قال الشهاب - مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلامها نعمة مستقلة تقتضي الشكر . ففيه إيحاء إلى تقصيرهم في أدائه . ولو عطف مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهاني في (الذريعة) : لما كان للنطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرفقة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مبهمة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مجبوء تحت لسانه . قال الشاعر (١) :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .
أى إذا توهم ارتفاع النطق الذى هو باللسان ، والقوة الناطقة التى هى بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلاً عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى لبعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء فى الكلام ، فيقع منه جنایات عظيمة فى أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فحال أن يقال فى الصمت فضل ، فضلاً أن ينجار بينه وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلها فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوَّانَةَ الدَّرَاجِ فَأَلْمُتْكُمْ

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الحما ، أفضل من الكلام بالخطأ . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بِالْفَتَى من منطوقٍ في غَيْرِ حِينِهِ

انتهى . وقد جوّز - كما حكاه الشهاب - أن يكون (الرَّحْمَنُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعدد نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومنفعوله مقدر . أى علم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من العلامة من غير تقدير) كما قيل . أى جملة علامة وآية لمن اعتبر - لبعده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجران بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، به تنسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السفن والحساب . « وَالنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَالشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى يفقدان لله فيما يريد بهما طبعاً ، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً . فهو استعارة مصرحة تبعية . شبه جريهما على مقتضى طبيعته ، بانقياد الساجد لخالقه والجملة - إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر - فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانها ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لفرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته . « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشاني : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولما استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاها لفسد - أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعدد الأصول بتمامها ، لشدة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجار . أى لثلاثا تطغوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » قال القاشاني : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى . ومن فسر (الْمِيزَانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطى فى (الإكليل) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

بالرفعة التي هي مصدر القضاء والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب - كذا ارتآه القاضي - والله أعلم .
وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عامّاً أولى وأفيد .
ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازي : (أَلْمِيزَانُ) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول .
قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى ^(١) (فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) ؛ وبمعنى المقروء في قوله ^(٢) (إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ) ؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) ، فكأنه آله ومحل له ؛ وفي قوله تعالى ^(٤) (أَأَنْتُمْ أَنْتُمْ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانُ الْعَظِيمُ) . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فُكِّهَتْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبَأَىءَ الْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهّدها للخلق « فِيهَا فُكِّهَتْهُ » أي صنوف مما يتفكّكه به « وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطالع فيه العنقود ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطباً . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردا بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة ، على ما عرف من اتخاذ الظروف منها ، والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك . فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائده أشجارها في عين ثمارها . « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » أى وفيها الحب . وهو حبّ البرّ والشعير ونحوها (ذُو الْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتبين . « وَالرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه في حالتيه . هذا على (قراءة) (الريحان) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية في نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبي : الريحان ، إما فيملان ، من (روح) ، فقلبت الواو ياءً ، وأدغم ثم خفف ، أو فعلان ، قلبت واؤه ياءً للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى ^(١) (لِلْأَنَامِ) ، وسينطق به قوله تعالى ^(٢) (أَيُّهُ الثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً . والتعريض لعنوان الربوبية المنبثقة عن المالكية السككية والترابية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها ، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة ، فإن إشرافهم لآلهتهم به تعالى في العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعي إشرأفهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتمبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب ، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر ، شهادة منها بذلك . فكفرهم تكذيبها لاحالة . أى فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأى فرد من أفراد آلاء مالهكم ومربيتكم بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلاً منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذى له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جملة طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصلاً . فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين . « وَخَلَقَ الْجَانَّ » أى الجن ، أو أبا الجن ، « مِنْ مَّارِجٍ » أى لهب صاف « مِنْ نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوابغ النعم . ومما أظهره لكم بالقرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أى مشرق الشتاء والصيف ومغربيهما أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فيهما من النعم

والقوائد التي لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (يَبْنِيهِمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « يَبْنِيهِمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَا يَبْغِيَانِ » أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالمزجة ، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر، قد يجرى فيه فراسخ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما - وهو مروي عن قتادة والحسن - قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية ^(١) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير ^(٢) ما روى عن ابن عباس وغيره؛ أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض . وذلك أن الله قال ^(٣) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أسداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . معلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما فى الذى قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل فى الآى التشابه . زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى هو الأول . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فى البحرين وخلقهما من الفوائد ، وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أى كبار الدر وصفاره . أو (المرجان) الخرز الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدها ، وهو الملح ، لأنه لا متزاجهما يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله ^(١) (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال: هو من أهل مصر ، وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير (مِنْهُمَا) لبحرى فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متسكون فيهما ، بل أنهما يحصلان فى جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل . ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحليتهم بهما ، كما تشير له آية ^(٢) (وَمِنْ كُلِّ ثَمًا كُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

[٢٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَهُ الْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتي تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتي تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التي أنعم بها في هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : من على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » أى ذاته الكريمة « ذُو الْجَلَالِ » أى العظمة والعلو والكبرياء « وَالْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية^(١) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها الحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويوئد الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها المدل الإلهي المكلفين - قال سبحانه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازي إلى ما في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله :
فيه فوائد :

منها - الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إل الطاعة .

ومنها - المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول - إذا كان في نعمة - إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملسه .

ومنها - الأمر بالصبر إن كان في ضرر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضرر زائل .

ومنها - ترك اتخاذ الغير معبوداً ، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها - حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً، لأن الفاني لا يصاح لأن يعبد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفرغم الدناتى ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدد أحوالاً .

قال مجاهد : يعطى سائلاً ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير^(١) أن النبي ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يا رسول الله ! وما ذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال الفاشاني : المراد يسأله كل شيء ، فغاب العقلاء ، وأتى بالفظ (مَنْ) أى كل شيء . يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خلق شأن ، بإفاضة ما يستحقه ويستأهله باستعداد . فمن استعد بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والردائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشُرور والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره - كإن كثير والقاضى - رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو ما يتبادر بآدى بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولاً « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يسمف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فأناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَفَرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَفَرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً . وفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سفة صد لجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك ، أى أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والمشرى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلي به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تديره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ في الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تديره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن - بحال من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع في آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعمراً للأخذ في الجزاء وحده .

لطيفة :

رسم (أَيْهَ) بغير ألف . وأما في النطق فقرأ أبو عمرو والكسائي (أيها) بالألف في الوقف ، ووقف الباقر على الرسم (أيه) بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر (أَيْهَ) برفع الهاء ، والباقر بنصبها .

و (الثقلان) تثنية (ثَقَلَ) بفتح تين ، فَعَلَ بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب في (لَكُمْ) قيل للمجرمين ، لكن ياباه قوله (أَيْهَ الثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع - كما أفاده الشهاب - ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلي . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رَبِّكُمْ كَمَا تَكُنُّ بَانَ » أى من ثوابه أهل طاعته ، وعقابه أهل معصيته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَمْشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
[٣٤] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَمْشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتمجزوا ربكم ، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه
ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَأَنْفُذُوا » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟ ونحوه ^(١) (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعملوا ما فى السموات والأرض فاعلموه ،
وان تعملوه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى
الآية الأولى أنه لا محالة مجاز للعباد ، عقبه بقوله (إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ . . .) الخ ، لبيان أنهم
لا يقدرّون على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أَرَادَهُ . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »
قال ابن جرير ^(٢) : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرّون على خلاف
أمر أَرَادَهُ بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والمفوّ مع كمال القدرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ)
[٣٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ » أى من لهب « مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفْر مذاب يصبّ

(١) [٢٩ / المنكبوت / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنْتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتنفذان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أملككم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .
وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ، وعبارته :

هذا فى مقام الحشر ، والملائكة عذقة بالخلائق ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسطان ،
أى بأمر الله ^(١) (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُءُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى ^(٢) (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَانَمَا أَغْشِيتُ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال الله من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك ، الإمام ابن القيم رحمه الله ، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه (طريق الهجرتين) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل قوله تعالى (إِنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا) مأمثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض ، وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً ، كما قال تعالى ^(٣) (وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدِيرِينَ) قال مجاهد : فآرين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ - ١٢] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢ و ٣٣] .

قوله ^(١) (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) وقوله ^(٢) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ..) الآية. وهذا القول أظهر - والله أعلم - فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتمجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم ، فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها (سَنَفْرُغُ لَكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها ^(٣) (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ) فلا بد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر. وقال تعالى (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل : إن استطعتم ، لإرادة الجماعة ، كما فى آية أخرى ^(٤) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال ^(٥) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين ، أى لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله ^(٦) (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) لخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ لإرادة أحدهما - والله أعلم - انتهى كلام ابن القيم .

وأنت ترى أن لاقربنة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لا يؤيده ، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ما ذكرناه .

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] . | (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |
| (٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧] . | (٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . |
| (٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥] . | (٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى انقطرت فاختل نظامها العلوى « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أى كلون الورد الأحمر « كَالدِّهَانِ » أى كالدهن الذى هو الزيت ، كما قال ^(١) (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) وهو دردى الزيت ، يعنى فى لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » أى لا يفتح له باب المذرة ، كقوله ^(٢) (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فى السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثير السؤال على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشانى : وأما الوقف والسؤال المشار إليه فى قوله ^(٣) (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) ونظائره ، فى مواطن آخر من اليوم الطويل الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الوطن قبل الوطن الأول فى ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠ / المارج / ٨] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

وكذا قال ابن كثير: إن هذه الآية كقوله^(١) تعالى (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فهذا في حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى^(٢) (فَوَرِّبَكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* ثُمَّ كَانُوا يَمْعَلُونَ) وفي الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم في (طريق المجرتين) اختلف في هذا السؤال المنقّى ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنقّى سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال الحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(٣): أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوْصِيِّ وَالْأَفْقَامِ)

[٤٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

[٤٤] (يَطُوفُونَ يَنْتَهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ إِنْ)

[٤٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكتابة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٦ و ٣٥] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فنسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام ، أو للتعديدية . و (الناصية) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(١) : أى من تعريفه ملائكته ، أهل الإجماع من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانِ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شئ قد أدرك وبلغ فقد أُنِ . ومنه قوله^(٢) (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به . ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدينية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)

[٤٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

- [٥٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٤] (مُسْكِينٍ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
- [٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٦] (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
- [٥٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٨] (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)
- [٥٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقاد الحلب ، أى رقاد عند الحلب . أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب ، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهاني بليغ ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، نخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإثبات التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثباته المحسن ما وصف « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع (فنن) وهو ماذق ولان من الغصن « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عِمَّتَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج .

نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ !
 « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنى داني القطوف « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَهِنُ قَسِيرَاتُ الْطَّرْفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات الفطر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول التنبى :

وخصرٍ تثبت الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقاً

فالمراد : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن . أو المعنى : شديداً بياض الطرف ،

كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوارى .

وجلى أن المعانى ههنا لا تراحم لتحقيق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِئَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » أى لم يسهن . وأصله خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عم كل جماع . وقد يقال : إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكرةً كلما جومت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمئن ويدخلن الجنة . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة ، أوفى حمرة الوجفة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَامَتَانِ)

- [٦٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٦] (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ)
 [٦٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٨] (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)
 [٦٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٠] (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)
 [٧١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٢] (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
 [٧٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٤] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٧٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٦] (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ)
 [٧٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٨] (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ » أى فى العمل « إِلَّا الْإِحْسَانُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة
 « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * » ومن دونيهما « أى دون تينك الجنة النوة بهما
 « جَنَّاتٍ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف
 فى منظرها « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَاهَا مَتَّانٍ » أى خضراوان من الرى ،

تضربان إلى السواد من شدة الحضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة إلى نهاية (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ « أَيْ فَوَارَتَانِ بِالْمَاءِ » فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنُخْلٌ وَرُمَانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية، جنسان آخران « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ » جمع (خيرة) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل . أى فضلات الأخلاق . وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده « حِسَانٌ » أى حسان الوجوه « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ » الحور : جمع (حوراء) وهى البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَاتٌ) قصرن أنفسهن على منازلهن ، لا يهمن إلا زيفتهن ولهوهن . وفيه الممانى المقدمة أيضاً . و (الْخِيَامِ) قال ابن جرير ^(١) : يعنى بها البيوت . وقد يسمّى العرب هودج النساء خياماً ، ثم أنشد له . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْ سُئِلَتْ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ » يعنى بهنَّ حورالجبنتين اللتين من دون الأولين . أو تكرير لما سبق ، للتنبؤ بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتميات ، وطليعة الملذات : « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ » أى سررا أو مسانداً أو وسائد « خَضِرٌ وَعَبْقَرِيٌّ » أى طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياذ . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبیر : (العبقرى) عتاق الزرابى ، أى جياذها . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكم هذا الإكرام . « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العلية ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كناية ^(٢) (تَبَارَكَ الَّذِى جَمَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ونحوها . وسر إيثار الاسم

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ / الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماءُ الحسنَى ، لاستحالة اكتفاء الذات المقدسة . فما عرف اللهَ إلا اللهُ . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقحم ، كقوله (١) :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكممَّا *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقة . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فحق . ومعنى (تَبَارَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء . ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونجّله ونسكّرمه ، فله التبرك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حينما كان من قرطاس ، أو في شيء منقوش فيه ، أو مذكور باللسنة . ومن لم يجلّ اسم الله عز وجل

(١) وعجزه : * وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً لَا كَامِلاً فَقَدْ اغْتَدَرَ *

وقائله لبید بن ربیعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وهل أنا إلا من ربیمة أو مُضَرُّ
ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرُ
وقولا : هو المرء الذي لا خلیله أضاع ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

فقوله (إلى الحول) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول . والحول : السنة كاملة بأسرها . وقوله (اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية في العذر .

(تفسير الطبري ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (في الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها . انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة في سر تكرير (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطي في (الإتيان) في بحث التكرير :

قد يكون التكرير غير تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيماً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها - قاله ابن عبد السلام وغيره - انتهى .

وفي (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هي الفاظ كل ما أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصاً فيما يليه ، ظاهراً في غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزيد به عن ثلاثة ، لأن ذاك في التأكيد الذي هو تابع . أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يتنعم . انتهى .

وقال العز بن عبد السلام في آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبِأَيِّ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) نعمة ، وكذلك قوله (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدّد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيه من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله ^(١) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة في ذلك المقام . وأما قوله ^(٢) (كُلُّ مَنَ عَلَيْهِمَا فَاَنٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفي الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوي : كررت هذه الآية في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقرّروهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وتابع إليه بالأيدى ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم نكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فمززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب . انتهى .

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى في (الدرر والغرر) : التكرار في سورة الرحمن ، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكما ذكر نعمة أنعم بها ، ويّج على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثى كليباً^(١) :

على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما ضيمَ جيرانُ المجيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا رجف العِضاءُ من الدُّبورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خرَّجتْ مُحِبَّةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما أُعْلِمَتْ نَجْوَى الأمورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا خيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	غداة تَلَا تِلَ الأمرِ الكبيرِ
على أن ليس عدلاً من كليبٍ	إذا ما خَارَ جَارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام في (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنة وأهلها ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها في الجنة اللتين هادون الجنة الأولين ، أخذاً من قوله (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلى فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالى المرتضى (طبعنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :

٥٦ - سورة الواقعة ، ٥٧ - سورة الحديد ، ٥٨ - سورة المجادلة ، ٥٩ - سورة الحشر ،
 ٦٠ - سورة المتحنة ، ٦١ - سورة الصف ، ٦٢ - سورة الجمعة ، ٦٣ - سورة المنافقين ،
 ٦٤ - سورة التغابن ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٦٧ - سورة الملك ،
 ٦٨ - سورة القلم ، ٦٩ - سورة الحاقة ، ٧٠ - سورة المعارج ، ٧١ - سورة نوح ،
 ٧٢ - سورة الجن ، ٧٣ - سورة المزمل ، ٧٤ - سورة المدثر ، ٧٥ - سورة القيامة .

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٣٢٦	٤٦ - سورة الأحقاف
٥٣٧١	٤٧ - سورة محمد ﷺ
٥٣٩٤	٤٨ - سورة الفتح
٥٤٣٧	٤٩ - سورة الحجرات
٥٤٨٠	٥٠ - سورة ق
٥٥١٩	٥١ - سورة الذاريات
٥٥٤٠	٥٢ - سورة الطور
٥٥٥٣	٥٣ - سورة النجم
٥٥٩١	٥٥ - سورة القمر
٥٦١٠	٥٥ - سورة الرحمن

رقم الإيداع بدار الكتب رقم ٤٢٤٠ / ١٩٧٠

